جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بإيتاي البارود
المجلة العلمية

صدى رواية (يوميات نائب في الأرياف) لتوفيق الحكيم في رواية (طبيب أرياف) لمحمد المنسي قنديل

إعداد
د/ أماني حافظ عبد الخالق الحفناوي
كلية اللغات والترجمة – جامعة السادس من أكتوبر

(العدد السابع والثلاثون)
(الإصدار الأول .. فبراير)
(١٤٤٥هـ - ٢٠٢٤م)

علمية- محكمة- ربع سنوية
الترقيم الدولي: ISSN 2535-177X

صدى رواية (يوميات نائب في الأرياف) لتوفيق الحكيم في رواية (طبيب أرياف) لمحمد المنسي قنديل

أماني حافظ عبد الخالق الحفناوي
قسم اللغة العربية، كلية اللغات والترجمة، جامعة السادس من أكتوبر، مصر
البريد الإلكتروني: amanihafezalhafnawi@gmail.com

الملخص:

تعدُّ رواية (يوميات نائب في الأرياف) من أشهر روايات الأديب والكاتب المسرحي توفيق الحكيم، وقد ذاع صيتها وانتشرت انتشارًا كبيرًا في الأوساط الثقافية، وحققت مبيعات كبيرة في سوق الكتاب العربي، فمنذ صدورها عام (١٩٣٧) تُرجمت ونُشِرت طبعات عديدة بلغات مختلفة؛ كالفرنسية والإنجليزية والعبرية والألمانية والإسبانية والروسية، وقد امتد تأثيرها على كثير من الكُتَّاب، خاصةً وأن أحداثها تدور حول معاناة الريف المصري، كما ظل تأثيرها حاضرًا في العديد من الروايات التي كتبت بعد ذلك، سواء أكان تأثيرًا عميقًا أم نسبيًا كرواية (الأرض) لعبد الرحمن الشرقاوي، و (الوتد) لخيري شلبي، ومن الروايات المعاصرة رواية (ابن الريف) لعبد الحميد محمد بدران و (الطريف في طب الريف) لأحمد خالد توفيق، وقد اختارت الباحثة إحدى هذه الروايات، وهي رواية (طبيب أرياف) لمحمد المنسي قنديل للكشف عن تأثير رواية (يوميات نائب في الأرياف) فيها، وهذا البحث سعى إلى النظر في العلاقة التي تربط بين رواية (يوميات نائب في الأرياف) ورواية (طبيب أرياف)، والبحث عن أشكال هذه العلاقة ومداها كمًا وكيفًا، وتحليل شبكة العلاقات بين الروايتين، بما يبرز أثر رواية (يوميات نائب في الأرياف) في رواية (طبيب أرياف)، وقد تجلت هذه العلاقات بين الروايتين في عدد من الصور بينهما، وهي: المدخل العام حول رواية السيرة الذاتية، وعتبات النص، ثم البنية السطحية وما بها من تشابه في الأفكار والقيم والشخصيات التشابهات اللغوية، وصولًا إلى التشابه في البنية العميقة والمسكوت عنه. وهذه الصور المتعددة من العلاقات التي تناولها البحث تجلى من خلالها مدى تعالق رواية (طبيب أرياف) بـ (يوميات نائب في الأرياف).

الكلمات المفتاحية: الرواية، العتبات، القيم، الموازنة، التعالق.

The Impact of the Novel "*Diary of a Deputy in the Countryside*" by Tawfiq Al - Hakim on the Novel "*The Countryside Doctor*" by Mohamed Al - Mansi Qandil

Amany Hafez Abdelkhalik Elhefnawy
the department of Arabic language, Faculty of Languages and Translation, October 6 University
Email: amanihafezalhafnawi@gmail.com

Abstract:
The novel "Diary of a Deputy in the Countryside" is one of the most famous novels of the writer and playwright Tawfiq al - Hakim. It gained popularity and spread widely in the cultural circles. Besides, it has been a bestseller in the Arab book market. Since its publication in 1937, several editions have been translated and published in different languages, including French, English, Hebrew, German, Spanish and Russian. It has influenced many writers since its events revolve around the suffering of the Egyptian countryside. Its influence was also present in many novels written later, whether deep or relative, such as "Al - ard (The Earth)", by Abdul Rahman Al - Sharkawi, "Al - Watad (Deep Root)" by Khairi Shalabi, "Ibn Al - Reef (Son of the Countryside)" by Abdul Hamid Muhammad Badran, and "Al - Tareef about Tib Al - Reef (The Funny about Medicine of the Countryside) by Ahmad Khaled Tawfiq. The researcher selected one of these novels, "The Countryside Doctor" by Mohamed Al - Mansi Qandil, to reveal the influence of the novel "The Diary of a Deputy in the Countryside" on it. This research sought to consider the relationship between the novel "The Diary of a Deputy in the Countryside" and the novel "The Countryside Doctor", look for the forms of this relationship and its extent in quantity and quality, and analyze the relationships between the two novels, highlighting the impact of the novel the novel "The Diary of a Deputy in the Countryside" and the novel "The Countryside Doctor" These relationships between the two novels are illustrated in some images; namely, the general introduction on the autobiography, the peritexts, then the surface structure and its similarities in ideas, values, characters and linguistic similarities, up to the similarity in the deep and surface structure. These multiple images of the relationships discussed in the research showed how the novel "The Countryside Doctor" is related to "The Diary of a Deputy in the Countryside ".

Keywords: Novel, Peritexts, Values, Balance, Intertextuality.

مقدمة:

حظى الريف المصري باهتمام الروايات العربية، بدايةً من رواية (زينب) لمحمد حسين هيكل، ومرورًا بروايتي (الأرض) و (الفلاح) لعبد الرحمن الشرقاوي، والوتد لخيري شلبي و (ابن الريف) لعبد الحميد بدران، وحتى رواية (الطريف في طب الريف) لأحمد خالد توفيق.

وقد أسهمت الظروف المختلفة التي عاشها توفيق الحكيم وبعثته إلى فرنسا وتعلقه بالفن عامة والأدب خاصة في أن يسعى إلى مواجهة العادات والتقاليد البالية في الريف المصري، علاوة على الفساد الإداري، وربما تشابهت هذه الظروف مع التي عاشها محمد قنديل المنسي، الطبيب القاهري في مواجهة العادات والتقاليد نفسها في أثناء فترة تكليفه طبيبًا في الأرياف، وعبَّر عنها في روايته، ولعل هذا التشابه في الظروف – على الرغم من فاصل ثمانين عامًا بين نشر الروايتين (١٩٣٧ – ٢٠٢٠) – كان مدعاة لأن تتأثر رواية (طبيب أرياف) برواية (يوميات نائب في الأرياف)، وقد قامت فرضية البحث على أن لرواية (يوميات نائب في الأرياف) تجليات على رواية (طبيب أرياف)؛ ومن هنا فإن السؤال الرئيس للبحث: كيف تأثرت رواية طبيب أرياف برواية يوميات نائب في الأرياف؟ ويتفرع من هذا السؤال الرئيس الأسئلة البحثية الآتية:

١- ما مدى التشابه في عتبات الروايتين؟
٢- هل تشابهت بنية الروايتين؟
٣- هل تتشابه الأفكار والقيم والمسكوت عنه في الروايتين رغم اختلاف البيئتين والزمنين؟ وما مدى هذا التشابه إن وجد؟
٤- هل توافرت بعض صور التشابه اللغوي التي تؤكد اطلاع (طبيب أرياف) على (يوميات نائب في الأرياف)؟
٥- هل كشفت الروايتان عن تشابه الكاتبين في الرؤية والنظرة العامة للحياة؟

وقد عرضتُ عدة صور لتناول شبكة العلاقات بين الروايتين، ولكنني وجدت أن الأنسب أن تكون محاور البحث كما يلي:

- تمهيد يتناول رواية السيرة الذاتية وموقع يوميات نائب في الأرياف منها.
- عتبات النص.
- البنية السطحية.
- البنية العميقة.

ومن ثم الكشف عن الأبعاد الجمالية للعملين الروائيين، عبر توظيف آليات النقد الأدبي الجديد، فهذه الصور المتعددة من العلاقات التي يتناولها البحث يتجلى من خلالها تعالق رواية (طبيب أرياف) للمنسي قنديل[١] برواية (يوميات نائب في الأرياف) لتوفيق الحكيم[٢].

---

١ **المنسي قنديل** قاص وروائي مصري ولد عام ١٩٤٩، ترك الطب ليتفرغ للكتابة، وله مجموعة من القصص من القصص والروايات نال عن معظمها جوائز عديدة مثل رواية (قمر على سمرقند) والمجموعة القصصية (من قتل مريم؟)، وتعد رواية **(طبيب أرياف)** من أحدث رواياته حيث نشرها في نهاية عام ٢٠٢٠، وقد لاقت استحسانا من النقاد، صور فيها جانبا من سيرته الذاتية في فترته تكليفه كطبيب في إحدى قرى الصعيد حيث تعرض لحياة الريف المصري وأوضح وجهة نظره في عاداته وتقاليده.

٢ **توفيق الحكيم** كاتب وأديب مصري عاش ما بين عامي ١٨٩٨ و١٩٨٧، ترك القضاء وتفرغ للكتابة، ويعد من أهم رواد الرواية والمسرح العربي، حيث ترجمت معظم رواياته ومسرحياته إلى الإنجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية، تقلد عدة مناصب وحصل على العديد من الجوائز والأوسمة، وتعد روايته **(يوميات نائب في الأرياف)** – التي كتبها عام ١٩٣٨ مصورا فيها جانبا من سيرته الذاتية أثناء عمله وكيلا للنيابة في إحدى قرى مصر – من أشهر روايات الأدب العربي الحديث التي تعرضت لواقع عنيف ومعاناة الفلاحين في مصر في النصف الأول من القرن العشرين، رغم انتماء الرواية للمرحلة الأولى من كتابات الحكيم التي اتسمت بالقلق والاضطراب.

وتأتي أهمية الموضوع من كونه مقارنة بين عملين روائيين ينتميان إلى حقبتين تاريخيتين مختلفتين – نسبيا – (الثلاثينات والسبعينات من القرن العشرين)؛ والروايتان مرتبطان بالأيديولوجيا والمجتمع ارتباطًا موضوعيًا؛ حيث تتناول الرواية الأولى محطات في حياة وكيل نيابة في الأرياف، بينما تعرض الرواية الثانية محطات في حياة طبيب في الأرياف أيضا، ولكن بعد تغير الحقبة الزمنية، وما يتبعه من تغيير العادات والتقاليد والفساد الإداري والمجتمعي؛ ومن ثم فالموضوع جدير بالدراسة، خاصة وأن الروايتين لهما قيمة أدبية وفنية، خاصة أنني لم أعثر على دراسة تتناول العلاقة بينهما، فقط وجدت دراسات كثيرة تتناول رواية (يوميات نائب في الأرياف) منها دراسة (يوميات نائب في الأرياف – تراجيديا ساخرة تستشرف نتائج الفساد مبكرا) التي تحدثت عن شكل اليوميات، وبنيتها، وركزت على الواقعية الساخرة التي انتهجها الحكيم في الرواية، كما قارنت الدراسة بين الرواية والفيلم السينمائي مع التركيز على الرمز، أيضا أوردت آراء بعض النقاد الفرنسيين في الرواية.[١]

وأفردت دراسة عبد المحسن طه بدر التي أوردها ضمن كتابه عن نشأة الرواية العربية – عدة صفحات لرواية يوميات نائب في الأرياف عقد خلالها مقارنة بينها وبين عصفور من الشرق وعودة الروح للكاتب نفسه، وأوضح أن ما يميزها هو أسلوب اليوميات الذي وظَّفه ليقدم من خلاله صورًا حية من واقع حياته في هذه البيئة، ولكنه لم يكن من السذاجة بحيث يقتصر على الوقوف موقفًا حياديًا في عرضه ليومياته، بل جعل منها هدفًا للتعبير عن فكرته حول الريف ومشكلاته.[٢]

١ عزت عمر (يوميات نائب في الأرياف – تراجيديا ساخرة تستشرف نتائج الفساد مبكرا) – مجلة البيان – ٦ ديسمبر ٢٠١٦.

٢ عبد المحسن طه بدر – الرواية العربية في مصر – دار المعارف – ١٩٧٧.

واهتمت دراسة محمد راضي بعنوان: (دلالة المفردات والصور في رواية نائب في الأرياف: دراسة أسلوبية سيموطيقية...) بالرواية باعتبارها بناءً لغويًا تنتظم فيه الأصوات والمفردات والدلالات، ويعكس مضمونًا أو رؤية موضوعية وأيديولوجية ونفسية واجتماعية؛ سعيًا وراء دراسة لغوية أسلوبية لأدب توفيق الحكيم، وكيفية اختيار الكلمات والصور المجازية المعبرة عن بيئة الريف المصري، وانتهت إلى أن أدب توفيق الحكيم على درجة عالية من الجودة الأسلوبية.[١]

بينما عرضت دراسة (رواية طبيب أرياف – قصة حب متقدة يتعرى خلالها الريف المصري) محاولة الكاتب من خلال الرواية لمعالجة القضايا المختلفة للريف المصري أواخر السبعينات وأوائل الثمانينات من القرن الماضي من خلال التركيز على السلبيات.[٢]

وقد استخدمت الباحثة (المنهج الفني المقارن) الذي يعتمد على سيمياء العتبات ومصطلحي البنية السطحية والبنية العميقة عند تناول أشكال العلاقة بين الروايتين؛ لأنه الأنسب لتحقيق أهداف الدراسة؛ فمن خلال عقد موازنة بين عدة عناصر؛ نستطيع الوصول إلى أوجه التشابه والاختلاف بين الروايتين، واستجلاء شبكة العلاقات التي تجمع بينهما؛ فهذا المنهج "يدرس كافة الظواهر والمشكلات الخاصة بالدراسة، وهو أحد مناهج البحث العلمي التي تبحث أسباب حدوث بعض الظواهر عن طريق إجراء مقارنات بظواهر أخرى مشابهة لاستنتاج كافة

١ محمد راضي – دلالة المفردات والصور في رواية نائب في الأرياف: دراسة أسلوبية سيموطيقية – جامعة بنغازي – المجلة الليبية العالمية – مارس ٢٠١٦.

٢ محمد إبراهيم جاد الله – رواية طبيب أرياف – قصة حب متقدة يتعرى خلالها الريف المصري – ٢٤ – يناير – ٢٠٢١

العلاقات الموجودة بين الروايتين ويعتبر طريقة فعالة لتوضيح أوجه التشابه والاختلاف بينهما".[١]

ومن هنا يسهم هذا المنهج في توضيح التقارب بين الأعمال الأدبية، وعوامل التأثير والتأثر بينهما، وينتج عن ذلك صقل مهارة القراءة، وتمكين القارئ من دراسة الأدب بمرونة؛ متجاوزا حدود الزمان والمكان، والتعرف على الجوانب التي أثر بها الأدب والأدباء على مختلف انتماءاتهم وعاداتهم وتقاليدهم.

مدخل رواية السيرة الذاتية:

تعد الرواية من الفنون الأدبية المحدثة؛ فما مرَّ على نشأتها أكثر من عقد ونصف العقد؛ حيث ظهرت أولى الروايات العربية عام (١٨٦٧) تحت تأثير عاملي الحنين إلى الماضي والتأثر الغرب، ثم حظيت بوصفها فنًا مكانةً مرموقةً في أدبنا العربي، ومن ثم يمكن أن نؤكد أن الرواية العربية ظهرت في مطلع العصر الحديث بعد اتصال الثقافة العربية بالثقافة الغربية، عن طريق البعثات إلى أوربا وترجمة بعض الأعمال الروائية إلى العربية؛ مما أدى إلى ظهور عدد كبير من الروايات المترجمة والمعرَّبة، والتي نشرت مسلسلة في الجرائد والمجلات، ومن أشهرها: (مغامرات تلماك) لرفاعة الطهطاوي و (الفضيلة) و (ماجدولين) للمنفلوطي، و (بول وفرجني) لمحمد عثمان جلال، و (البؤساء) لحافظ إبراهيم، وهذه ليست إلا بضعة أمثلة فقط من أسماء الرواد المصريين في ميدان الترجمة الروائية.[٢]

١ أحمد مجدي – المنهج المقارن وطرق استخدامه (الأهداف – الخصائص – الخطوات) مناهج البحث – المدونة – مكتبتك – ٢٠ – ٦ – ٢٠٢٢

٢ إبراهيم عوض – الترجمة وأثرها في تطور القصص العربي – ٣ – ٣ – ٢٠١٤

و"قد أخذت الرواية العربية شكلها الحالي والخاص بكيانها العربي، وكذلك أصبحت حركة التأليف هي السائدة، كما بدأت مع تطور المجتمعات التي تنتج الفن الأدبي (الرواية) فقد تعددت اتجاهاتها تبعًا لمتطلبات العصر".[١]

و "في الوقت الذي كان فيه رواد الرواية (التحليلية) يضعون اللبنات الأولى في ميدان الرواية الفنية، ويتجهون بجهودهم إلى محاولة إبراز الشخصية المصرية، كانت جماعة أخرى من الأدباء تطور الترجمة الذاتية، وتستغلها للمساهمة في ميدان الرواية، وتتجه محاولاتها إلى تحرير الفرد المصري، وإبراز وجوده المتميز واستقلاله الذاتي، وأشهر أفراد هذه الجماعة ممن أسهموا في ميدان الرواية: الدكتور محمد حسين هيكل والدكتور طه حسين، والأستاذ عباس محمود العقاد والأستاذ إبراهيم المازني، والأستاذ توفيق الحكيم".[٢]

و "يختلف مفهوم السيرة الذاتية بين اللغة والاصطلاح فيقصد بها لغةً: الطريقة أو السنة والحالة التي نشأ عليها الإنسان، أما اصطلاحًا فهي سرد الأفراد لقصص حياتهم الخاصة، وتعرض السيرة الذاتية قصة حياة صاحبها فهي ولادة الماضي فقط، إذ يسترجع المؤلف ويتذكر ذكرياته، ومن ثم يقوم بتدوينها، وعلاقة السيرة الذاتية بالأدب تتراوح بين تفاصيل حياة المؤلف والخيال... لذلك فإن فن السيرة في الأدب العربي جمع بين التاريخ وبين الشخصية نفسها، وبذلك أشار بعض علماء النفس والاجتماع إلى أن السيرة الذاتية تمنح المؤلف فرصة إعادة رسم تاريخه".[٣]

---

١ عبد الرحمن محمد – نشأة الرواية العربية وتطورها – مجلة سطور – مايو ٢٠٢١

٢ عبد المحسن طه بدر – تطور الرواية العربية الحديثة في مصر ١٨٧٠ –١٩٣٧ – دار المعارف – الطبعة الثالثة – ١٩٧٩

٣ رهف السيد – السيرة الذاتية في الأدب العربي – سبتمبر ٢٠٢٠

وقد ظهرت السيرة الذاتية في الأدب العربي منذ العصر الجاهلي، من خلال الشعر الغنائي وازدادت الحاجة إليها بظهور الإسلام، فاشتهرت حينذاك (سيرة معاوية وبني أمية) و (سيرة ابن إسحق) وغيرهم الكثير، بيد أن تطور السيرة الذاتية في الأدب اكتسبت موضوعية أكبر في العرض والتحقيق؛ فظهرت كتب (الطبقات) و (التراجم)، وقد استمرت السيرة الذاتية بالتطور والانتشار عبر العصور، وكان الأدباء والمؤرخون يدونون أحداث عصورهم ويعرضون مواقف حياتهم المختلفة"[1]، ولم يقتصر ظهور فن السيرة على الترجمة الذاتية للأدباء، بل ظهرت لها أشكال مختلفة كاليوميات والمذكرات والاعترافات، وتعددت مضامينها وموضوعاتها، وأصبحت أكثر اتساعًا في تناول مناحي الحياة العامة والخاصة؛ حتى أصبحت كتب السيرة الذاتية الأكثر مبيعًا في دول العالم.

و"كثر الجدل والنقاش حول تداخل الأجناس الأدبية في الفنون النثرية عامة وفي السردية أكثر من سواها، وفي الرواية أكثر من غيرها من الأجناس السردية؛ حيث تعد الرواية فنًا أدبيًا يتصف بالمرونة والاتساع، والقدرة على استيعاب أجناس عديدة دون تشويه عناصر العمل الأدبي منها السيرة...، فإن الطبيعة السردية تؤسس لمساحة تلاقي بين الرواية والسيرة الذاتية، وهي مساحة مرجعيتها الواقع، أو هي النقطة التي يلتقي عندها النص الروائي والسيرة الذاتية؛ حيث يكون الواقع معيارًا ومرجعية حاكمة للحكم على واقعية الرواية ومصداقية السيرة الذاتية، وهذا التداخل بينهما يؤدي إلى ظهور فروقات ومشتركات بينها، فإذا كانت الرواية تعتمد على الخيال المطلق؛ فإن السيرة تعتمد على سرد أحداث ومواقف عاشها الكاتب، فكاتب السيرة الذاتية يعتمد على الذاكرة واستباق الذات

١ عائشة شهيناز فاطمة – التجربة الشخصية والترجمة الذاتية في الرواية العربية – مجلة جوميل – نقيب الهند – أبريل – مايو ٢٠٢١

والبوح النفسي؛ مصورا انفعالاته ومشاعره الدفينة إزاء هذه المواقف التي تصور حياته".[١]

وقد شهدت السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث تطورًا سريعًا، وأكبت خلاله التغيرات الحاصلة في الساحة الأدبية والنقدية، وقد أولى النقاد عنايةً واهتمامًا كبيرًا بنصوص السيرة الذاتية في الأدب العربي والكشف عن السيرة الذاتية التي تتخذ من الرواية شكلًا فنيًا لها؛ فرواية السيرة الذاتية أو "السيرة الروائية ممارسة إبداعية مهجنة من فنين سرديين معروفين (السيرة والرواية)، ولا يقصد بالتهجين معنى سلبيًا، بل التركيب الذي يستمد عناصره من مرجعيات معروفة، وإعادة صوغها وفق قواعد مغايرة، ففي السيرة الروائية يدمج الخطاب بين الروائي والراوي، فهما مكونان متلازمان لعلاقة جديدة هي السيرة الروائية لا يفارق الراوي مرويه ولا يجافيه ولا يتنكر له، بل يتماهى معه يصوغه ويعيد إنتاجه طبقا لشروط مختلفة عن شروط الرواية والسيرة".[٢]

فالعلاقة بين السيرة الذاتية والرواية علاقة ملتبسة وخلاقة بين جنسين سرديين كثيرا ما تنتج عن التفاعلات بينهما نصوصًا إبداعية متميزة تثير اهتمام القراء والنقاد؛ وحيث إن الصراع يؤدي دورا في الفصل بين الأجناس الأدبية وتمييز حدودها، فإن مساحة الحرية للكاتب هي التي تصنع الحد الفاصل بين الرواية والسيرة، ويعد عنصرا الصدق والصراحة من أهم العناصر التي يجب على كاتب رواية السيرة الذاتية الالتزام بها لتتولد الثقة بين المرسل والمرسل إليه.

١ عائشة شهيناز فاطمة – التجربة الشخصية والترجمة الذاتية في الرواية العربية (مجلة جوميل) – نقيب الهند – أبريل – مايو ٢٠٢١

٢ عبد الله إبراهيم – السيرة الروائية – إشكالية النوع والتهجين السردي – مجلة نزوي – سلطنة عمان – وزارة الإعلام – أبريل ١٩٩٨

إن السيرة فن لا بمقدار صلتها بالخيال؛ بل لأنها تقوم على خطة أو رسم أو بناء، وعلى ذلك فهي ليست في الأدب المستمد من الخيال، بل أدب تفسيري؛ ومن ثم يمكن اعتبار رواية السيرة الذاتية شكلًا من أشكال الرواية باستخدام تقنيات وسيرة ذاتية خيالية أو دمج عناصر السيرة الذاتية والخيالية؛ لأن رواية السيرة الذاتية جزء من الخيال؛ فهي "ليست وثيقة تاريخية فكل سيرة مهما يكن من دقة صاحبها، وهي مزيج مشترك بين عاملين متعارضين هما: (الخيال والحقيقة) ولكاتب رواية السيرة الذاتية الحق في أن يطلق لخياله العنان كما يحلو له، وكلما أمعن في خياله كان ذلك أفضل".[١]

فالخيال ركن أساسي من أركان رواية السيرة الذاتية، ومن دونها تخرج عن كونها فنا أدبيا يتذوقه القارئ ويحلق معه في عوالم السمو الروحي والرقي الفكري؛ ومن هنا يلجأ الكاتب إلى استعارة القالب الروائي، من خلال اختيار الأحداث اختيارًا فنيًا صالحًا للتأليف الروائي، مع مراعاة عدم حشد تلك الأحداث كأنها تاريخ يدون، بل عرضها كعناصر روائية تنمو وتتطور لكي تصل إلى نهاية معينة.

مما سبق يتضح أن رواية السيرة الذاتية شكل من أشكال الرواية باستخدام تقنيات سيرة ذاتية خيالية أو دمج عناصر السيرة الذاتية والخيالية، فلا يتوقع القارئ أن تحقق هذه الرواية (ميثاق السيرة الذاتية)، فقد تتغير الأسماء والمواقع، ويتم إعادة تشكيل الأحداث لجعلها أكثر دراماتيكية، ولكن – بعيدا عن تفاصيل الحبكة الصغيرة – تظل الرواية تشبه إلى حد كبير حياة المؤلف.

١ قحطان بيرقدار – رواية السير الذاتية بين الواقع والمتخيل – الواقع الإبداعي المتخيل – ٢٣ – ٤ – ٢٠٠٩

وقد ساعد التطور في فن السيرة الذاتية على ظهور فن الرواية؛ الذي اعتمد – بشكل كبير – على (فن السيرة)؛ إذ جاءت كتب السيرة والتراجم الذاتية في قالب روائي، وكان من أكثر من برعوا في هذا الفن (ميخائيل نعيمة) في كتابيه (مرداد) و (لقاء) وطه حسين في كتابه (الأيام) الذي يعد النص التأسيسي الأهم والأول لكتابة السيرة الذاتية في الأدب العربي، ومن بعده توفيق الحكيم في ثلاثيته (عودة الروح) و (عصفور من الشرق) و (يوميات نائب في الأرياف).

وجاءت "رواية السيرة الذاتية العربية المعاصرة في أغلب نماذجها وأبرزها صيغة مضادة (للواقعية)؛ فقد بدت نوعًا من التحول الانقلابي العنيف من السرد الشائع في الخمسينات إلى سرد خيالي صرف، وفي العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين أصبحت رواية السيرة الذاتية تمثل مكانة باللغة الأهمية؛ وبدت في غزارة وخصوبة كأنها نوع من تفحص الذات ومراجعتها ومساءلتها، ولم يكن أمام الكُتاب إلا أن يركزوا في واقعهم الداخلي.

ومن اللافت أن النصوص المعاصرة للسيرة الذاتية المستمدة من أحداث واقعية في حياة كتابها قد اتخذت أشكالا، واستعانت بأساليب مضادة للواقعية تمامًا، وليس من شك في أن هذه النصوص تنطوي على بعض عناصر السيرة الذاتية الصريحة التي لا سبيل إلى إنكارها ولا حاجة إلى التدليل على وجودها.

وتختلف أنواع السيرة الذاتية بين الكُتاب، فمنهم من يحاول المزج بين الواقع والخيال في رواياتهم، ومنهم من يحاول أن يساعد القارئ على تعرُّف أشياء غامضة في حياته بكل وضوح. وفي الغالب فإن القارئ يمكن أن يميز من الذي كتب السيرة الذاتية: هل هو الكاتب ذاته أم غيره من الكتاب؟ إن هذه النصوص أقرب إلى وظيفة الرواية وشكلها المراوغ منها إلى وظيفة السيرة الذاتية وشكلها المباشر، فالروائي اليوم ينطلق في أعماله بدافع التفاعل مع ما يدور في عصره، وبدافع التعامل مع المخيلة في وظيفتها الابتكارية في سرد القضايا الدائرة في

حدود عالمنا"[1] على نحو ما ظهر في روايات مثل: الزيني بركات وطبيب أرياف لمحمد المنسي قنديل.

وتتعدد المقاربات النقدية التي تستهدف الوقوف على محددات النص الأدبي ودراسة تقنياته واستكشاف جمالياته تعددا لا متناه، بقدر تعدد طرائق القراءة وإجراءات التحليل وآليات التأويل والتلقي للنص، وتعتمد الباحثة مقاربة نقدية تعتمد على مقارنة عتبات النصين وفكرتهما وبنيتيهما ومنظومة الأفكار القيم بهما المعلنة والمسكوت عنها، وصولًا لمدى التعالق بينهما.

أولًا – العتبات:

أصبحت دراسة العتبات أمرًا ضروريًا؛ فهي من أهم مفاتيح العمل الروائي؛ لأنها تدل على ما في النصوص؛ باعتبارها نصًا مكثفًا يهضم ما بداخل الرواية؛ فالعتبات النصية "من أهم القضايا التي يطرحها الدرس النقدي الجديد؛ نظرًا لفاعليتها وأهميتها وقيمتها الجمالية والدلالية، وقد أسهم الوعي النقدي الجديد في إثارة علاقة العتبات والنصوص المحيطة والمصاحبة بالنص المركزي؛ فأضحى مفهوم العتبة مكونا نصيًا جوهريًا له خصائص وسمات دالة، لها نفس الدرجة من التعقيد من خلال بنية النص".[2]

فالعتبات النصية تقوم بوظائف تتلاحم كلها من أجل قراءة المتن الروائي قراءة فاحصة متعمقة؛ ولذا لابد من الاهتمام بها؛ فهي بمثابة مفاتيح للمتلقي تساعده في فهم النص، والغوص في أعماقه. وتتنوع العتبات في النصين الروائيين بداية من الغلاف، فالعنوان ومرورًا بالإهداء والتصدير والفاتحة النصية وصولا إلى العناوين الداخلية والخاتمة.

---

١ أسماء حسن الغوري (عتبات النص ودلالتها في الرواية العربية المعاصرة) – ساق البامبو أنموذجا – مجلة ديلي – العدد السادس والثمانون – ٢٠٢٠

٢ أسماء حسن الغوري المرجع السابق ٢٠٢٠

١ – عتبة الغلاف:

يعد الغلاف أول العتبات النصية وأهمها في العمل الروائي؛ لكونه يسلط الضوء على ما بداخل المتن الروائي؛ حيث يمتد أثر الغلاف والعنوان إلى المفهوم الأساسي للنص، ويمثل الغلاف مجموعة من الدلالات والوظائف الإغرائية للمتلقي استطاع الكاتب من خلالها جذب القارئ إلى عوالم النص؛ فالناشر يعاين غلافه ويوشحه بما يتوافق وميوله وخبراته من عناوين ورسوم وصور وألوان في تأدية هذا الجانب على أكمل وجه وأول ما يقابلنا في عتبة الغلاف:

– صورة الغلاف:

"على الرغم من أن الصورة غالبا تتبع رؤية دار النشر، فإنها عادة تكون مستوحاة من موضوع الروايتين فصورة الغلاف لها أيقونة خاصة بها تمثل دلالتين أحدهما حقيقية وأخرى مجازية تحرك المتلقي لقراءة النص وتعدد التأويلات، كما أن للألوان علامات مميزة تعبر عن خلجات النفس، وتدل على إشارات إيجابية تتضح من خلال الرواية؛ كالحزن، واليأس، والإحباط، والمعاناة".[١]

وقد ظهرت صورة الغلاف في رواية (يوميات نائب في الأرياف) في شكل متداخل الصور والألوان بين صورة خلفية مركبة ترمز لأهم شخصيات الرواية (الشيخ عصفور) المجذوب ذو الطرطور الأحمر المائل بينما، ويرمز الطربوش المستقيم الأحمر الداكن للسلطة بمظاهرها المتعددة في الرواية سواء كان (المأمور) أو (النائب) (الكاتب) أو (المعاون) أو حتى (الشاويش) وبينهم شخص

١ محمد عبد المطلب – بلاغة السرد – القاهرة – الهيئة العامة لقصور الثقافة – كتابات نقدية – العدد ١٩٦

خائف مرتبك يمثل المتهم؛ أي متهم، بينما تغطي عليهم جميعا صورة بالقطع الكبير ذات ألوان زاهية لفتاة جميلة ترمز لـ (ريم) ابنة الستة عشر ربيعا التي دارت حولها قضية الرواية الرئيسة، وإن لم تتضح في الصورة ملامح البراءة والوداعة التي وصفها بها الأديب، بينما نجد رواية (طبيب أرياف) بلا صورة، فقط احتل اللون الأسود مساحة كبيرة، بما له من دلالة بصرية واضحة خاصة مع وجود حقيبة أدوية في أسفل الغلاف واختيار اللون الأبيض لإبراز التناقض بين الأرضية السوداء والعنوان.

وفي نهاية الرواية قد يتفهم القارئ السبب لحضور هذا السواد في الأرضية التي تعبر عن محاكاة للواقع العبثي الظالم الذي لا يحتاج لأي فانتازيا كي تظهر مدى سوداويته، وقد اقتصرت بعض الطبعات على الوحدة اللونية الخضراء بشكل يرمز للريف، ويعطي إحساسًا بالفضاء الرحب يتوسطه عنوان الرواية.

٢ – عتبة العنوان:

يمثل العنوان في كل عمل أدبي مفتاحًا إجرائيًا مهمًا يسهم في فض مغاليق النص وفك شفراته ورموزه؛ فهو بوابة الدخول إليه؛ حيث يميز العنوان عملًا أدبيًا عن آخر، كما أنه "مرآة النسيج النصي الذي يعكس مضمونه وبنيته ويكثف دلالته؛ لأن المؤلف عادة ما يحاول أن يثبت قصده في العنوان حتى يبدو وكأنه النواة المتحركة التي يحاك حولها نسيج النص، وعلى هذا فإن مقاربة النصين لا يمكن أن تتم إلا إذا كان الدخول إليه من مدخله الشرعي وهو (العنوان)".[١]

١ فايزة صلاح قاسم عثامنة – العتبات النصية في السير الذاتي وتقنياته – حكاية وشم – لعبد القادر الرباعي نموذجا – دراسة نظرية تطبيقية – ٢٠٢٣

العنوان إذن هو العتبة النصية التي يجب أن يخطوها القارئ في تؤدة مصحوبة بقدر من التأمل اليقظ لكي يلج إلى النص، وهو كذلك مفتاح للنص يصونه عن التشوه والخطأ، كما أنه المفتاح الرئيس لفهم وتحليل للبنية الدلالية العامة للرواية كلها.

"فكل عنوان ينفتح على دلالات وإيحاءات متنوعة تجعله يتأثر باعتبارات سيمولجية وإشارية تفيد في وصف النص الأدبي وتعيينه والإبانة عن موضوعه".[١]

العنوان – كرسالة لغوية بوعي من الكاتب – يهدف إلى الكشف عن الجوانب الدلالية والرمزية في النص الأدبي؛ حيث يعد العنوان "ملتقى علامات وحوار خطابات حافلة بتوهج الذاكرة التاريخية تتكامل بشكل أخبار"[٢] فهذا يُحدث له نوعا من التشويق إذ لا يدري ماذا سيحدث سواء (للنائب) أو (الطبيب) في الأرياف وبذلك يدخل في سلسلة من الاحتمالات.

وبالنظر إلى الروايتين يتضح أن عنوانهما أبرز ما يلفت نظرنا عند محاولة استجلاء الوشائج بين بينهما، فعنوان رواية (يوميات نائب في الأرياف) جاء مفصلًا مكونًا من أربع كلمات بدأها بكلمة (يوميات) التي تكشف عن تكرارية ونمطية الأحداث، بالإضافة إلى إشارتها الزمنية بينما أفادت كلمة (نائب) في الكشف عن مهنة البطل. أما (الأرياف) فجاءت مسبوقة بحرف الجر في؛ لتوضح مكان الأحداث، وهكذا تجمعت في العنوان أهم عناصر الرواية من زمان ومكان وشخصيات وأحداث، وعلى الجانب الآخر نجد التركيب الإضافي الموجز

---

١ عثمان بدوي (وظيفة اللغة في الخطاب الواقعة عند نجيب محفوظ (دراسة تطبيقية) الجزائر – المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية – ٢٠٠٠

٢ سمر الديوب – النص العابر – دراسات في الأدب القديم – مطبعة اتحاد الكتاب – دمشق – ٢٠١٤ – ص٢٠٢

لعنوان رواية المنسي (طبيب أرياف) حيث اكتفى بالإشارة مهنة البطل مقترنًا بالمكان مفتقدًا للإشارة المباشرة للزمان، وقد يكون هذا رمزًا لتكرار الأحداث التي تواجهه كطبيب أرياف في كل زمان. علاوة على أن عنوان (يوميات...) قد يدخل الرواية في مجال (السيرة الذاتية)؛ حيث قصد الحكيم أن تصل فكرته أنها (يوميات) كاملة واضحة بلا أي لبس للقارئ، بينما لم يؤكد هذا المعنى المنسي، فعنوان رواية (طبيب أرياف) لا يوحي بذلك.

ومن جهة أخرى فإن "للعنوان وظائف متنوعة منها الوظيفة التعبيرية، وتتحدد في أنها تعطي العمل الأدبي اسمًا ما دالًا عليه (يوميات نائب في الأرياف) و (طبيب أرياف) والوظيفة الوصفية: وتتمثل في قدرة العنوان على أن يقول شيئا عن النص، أو يفصح عن جزء من مضمونه؛ فعنوان الروايتين يشي بمجموعة من القصص القصيرة التي ستحكي عن بطل يعمل نائبًا مرة، وطبيبًا مرة أخرى، وكلاهما في الأرياف، بالإضافة إلى الوظيفة الدلالية الضمنية المصاحبة: وتتمثل في القدرة على التلميح والإيحاء من خلال تراكيب لغوية متميزة كما يتضح من العنوانين وكذلك الوظيفة الإغرائية: وتتمثل في قدرة العنوان على إثارة فضول القارئ نحو النص".[١]

ويتضح أن عنوان كلتا الروايتين يحمل الكثير من عناصر التشويق للقراءة للتعرف على أهم الأحداث التي مرت بهما، خاصة أن العنوانين يشيان بأن البطلين من سكان المدينة، وإلا لما ذكر الأرياف في العنوان، وإن كان عنوان الرواية الأولى الطويل نسبيًا أكثر وضوحًا وتحديدًا (يوميات نائب في الأرياف)، بينما جاء العنوان الثاني رغم التأثر الواضح بالعنوان الأول قصيرًا مناسبًا لروح

١ عبد الحميد بواريو (الكشف عن المعنى في النص السردي – السرديات السيميائي) – الجزائر – دار عكنون – ٢٠٠٨

العصر بعد مرور ما يقرب من ثمانين عامًا على نشر الرواية الأولى، وربما أسهم هذا القصر في الغموض الذي يجذب القارئ لسبر أعماقه بقراءة الرواية؛ فالعنوان الموجز يختزل النص الأدبي، وهو المثير الذي يحفز القارئ على طرح الأسئلة والتوقعات المختلفة حول النص، وبعد الانتهاء من القراءة يتأمل إلى أي مدى كانت توقعاته عنه صحيحة.

وهكذا يتضح أن المنسي قنديل قد واجه تحديًا كبيرًا في (طبيب أرياف) التي يستدعي عنوانها رواية توفيق الحكيم (يوميات نائب في الأرياف) حيث التناص في العنوان تأثرا بأحداث الروايتين ومفهوم الارتحال المكاني الإلزامي من المدينة إلى الأرياف التي جاءت جمعا للدلالة على حتمية وقوعها في أي قرية لأي محافظة.

٣ – عتبة الإهداء والتصدير:

على الرغم ما للإهداء من وظائف سيميائية كثيرة؛ كالتلميح والإيحاء إلى ما بداخل النص الروائي، أو الشرح، أو التكثيف، أو إثارة فضول المتلقي، فإن الروايتين قد أغفلتا الإهداء، في حين استعاض الحكيم عن ذلك بالتصدير إلا أن المنسي تجاوز كليهما وبدأ مباشرة بأولى حلقات الرواية ورقمها (١).

والتصدير عتبة مفاجئة؛ لما له من أهمية في توجيه فهم القارئ نحو مضمون النص وقد يكون التصدير حكمةً، أو مثلًا، أو بيت شعر، أو غيره يلخص به الكاتب ما يدور داخل المتن الروائي، وهو العتبة النصية التي تقع بعد صفحة الإهداء؛ فهي عتبة ذات دلالة مفتاحية تساعد المتلقي في تأويل ما بداخل النص الروائي، ولعل هذا ما جعل الحكيم يصدر روايته بسبعة أسطر يتحدث فيه عن سبب كتابته للرواية، من خلال عدة تساؤلات بدأها بسؤال "لماذا أدون حياتي في يوميات؟ ألا أنها حياة هنية؟ ويرد في نفسه كلا! إن صاحب الحياة لا يدونها إنما يحييها"، ثم يتابع تأملاته الفلسفية بأنه يعيش مع الجريمة في أصفاد واحدة، فهي رفيقه وزوجه، وأن هذه اليوميات تمكنه من الحديث عنها وعن الكائنات

جميعًا؛ حيث تعد هذه اليوميات والصفحات نافذة مفتوحة يطلق منها حريته في ساعات الضيق؛ ولذا ظهر التصدير في صفحة مستقلة، ولعل الحكيم قصد أن يكون التصدير قريبا من متن الرواية كتمهيد لها.

٤ – عتبة الفاتحة النصية:

الفاتحة النصية غالبا ما تحمل مفتاحًا مهمًا لفهم مضمونه، وتعرف دلالته، وتنتمي إلى خانة الموازنات النصية أي التي تقع تحت مسؤولية المبدع؛ فالفاتحة النصية لا تخلو من القصدية، سواء في اختيار العبارات، أو في اختيار فكرة البداية.

تبدأ الفاتحة النصية رواية الحكيم: بـ "**أويت إلى الفراش البارحة مبكرا؛ فلقد شعرت بالتهاب الحلق وهو مرض يزورني من حين إلى حين**" في إشارة إلى الذات المريضة. أما رواية المنسي فتبدأ بالحديث عن المكان الريفي فيقول "**حقول سوداء على مدى البصر أرض محروقة تتصاعد من شقوقها أدخنة في خطوط متعرجة كأنها بقايا معركة تم حسمها أتأملها مفزوعا: ما الذي أحضر الحرب إلى هذا المكان؟**" فالفاتحة النصية هنا منح ثقافي وفني؛ مما يدخل المؤلف بواسطته مع المتلقي في علاقة وجدانية حميمية.

٥ – عتبة العناوين الداخلية:

وظائفها نفس وظائف العنوان الرئيس كبنى سطحية، وهي عناوين واصفة شارحة لعنوانها الرئيس، وتعد العناوين الداخلية من العتبات المهمة في النص الروائي، وتنبع أهميتها من كونها تعيَّن طبيعة النص، وتحدد نوع القراءة بالنسبة للمتلقي، كما أنها تختلف في وظيفتها عن وظيفة العنوان الرئيس للرواية؛ فهي "تسهم في فك رموزه شارحة له، وواصفة وملهمة لما بداخل المتن؛ حيث تعد هذه

العناوين معبرًا يقود القارئ من الداخل إلى الخارج متدرجًا في المعاني، متنقلا من الظاهر إلى المختفي في متن النص الروائي."[١]

وقد اتفق الكاتبان في تقسيم روايتهما إلى اثني عشر قسما، ولكن هذه العناوين الداخلية اقتصرت في رواية الحكيم على تواريخ بداية من ١١ أكتوبر إلى ٢٢ أكتوبر بدون ذكر السنة لكي يبعد بالرواية عن الأحداث الحقيقية، وربما ليعبر أن ذلك يحدث في كل زمان، بينما لم يحدد المنسي قنديل أي تواريخ، بل قسمها فقط لأرقام من ١: ١٢ وكأنها حلقات متسلسلة.

ومن هنا يتضح أن الأبواب أو العناوين الداخلية جاءت في كلتا الروايتين للتعبير عن أفكارها بشكل تقريري مباشر واضح ومطول – أحيانا – وكأنه لا يريد أن يترك مساحات أو فراغات فكرية تتفلت من القارئ أو لا ينتبه لها، كما لا يوجد رابط منطقي واضح بين عناوين الفصول؛ فلا تبدو مرتبة وفق تصور واضح محدد – باستثناء التاريخ في الرواية الأولى والأرقام المتسلسلة في الرواية الثانية – ومن ثم لم تأت هذه الأبواب، أو الفصول متدرجة متماسكة ومتكاملة، بل كان الرابط بينها فقط – في كلتا الروايتين – هو الحكاية الإطارية التي تسمح بدمج هذه المتفرقات تحت مظلة الحكاية الإطار التي ابتعد فيها الحكيم عن الحديث عن نفسه ومحاولته التكيف مع الحياة في الأرياف، فقد اعتبر ذلك مقدمة بدهية لا يهم ذكرها، وفضل أن يبدأ روايته بالجريمة الرئيسة التي يحقق فيها (مقتل قمر الدولة علوان) حيث اعتبرها الحكاية الإطار، ومن خلالها عرض لمواقفه ويومياته داخل الأرياف وخارجها بينما فضل المنسي قنديل أن تكون الحكاية الإطارية في روايته هي حكايته نفسها، وكيف قضى تلك الفترة في

١ عبد الحميد بواريو (الكشف عن المعنى في النص السردي – السرديات السيميائي) – الجزائر – دار عكنون – ٢٠٠٨

الأرياف ويعرض خلالها حكايات ريفية فرعية ومواقف تعرض لها (شواهد من الحكايات الفرعية والحكاية الرئيسية في الروايتين).

ومن هنا فقد وظف كلاهما الرواية لتكون الوعاء الذي يتحقق من خلالها هدفهما وهو نقد المجتمع الريفي بعاداته وتقاليده، بل وقوانينه.

٦ – عتبة الخاتمة:

تمثل خاتمة الرواية الرابطة بينها وبين المقاطع السردية للنص الروائي، بدءًا من الغلاف، ومرورًا بالإهداء والتصدير والعناوين الداخلية، التي تعد الجزء الأخير من الحبكة، وفيها ينتهي الصراع الدرامي وتظهر النتيجة، وبناء على ذلك فقد أنهى الحكيم روايته بعد أن أعيته السبل في الوصول إلى الجاني سواء في قضايا الريف البسيطة أو في قضية الفساد الكبرى بمظاهره المتعددة التي يعرضها باستياء وسخرية عبر روايته: بقوله: "ثم كتبت في ذيل المحضر الإشارة المعهودة: "تحفظ القضية لعدم معرفة الفاعل... إلخ إلخ". وسحبت (الجنايات) الأخرى وفعلت بها مثل ذلك وناولتها رئيس القلم الجنائي، وأنا أقول له في نبرة خرجت ساخرة مريرة على الرغم مني: مبسوط! أدحنا خلاص سددنا كشف الجنايات! انتهى".

بينما فضَّل المنسي أن ينهي روايته بعبارة تشير إلى التأمل، وتحمل أكثر من دلالة على الفساد والزيف: "أرفع رأسي ببطء فأراه أمامي يمسك بيده ورقة تبدو في عيني بيضاء وخالية من الكلمات يقول: هذه الإشارة وردت من مديرية الصحة منذ يومين.

أقول واضح أنك قرأتها جيدا... ماذا فيها؟

يقول: لقد تمت الموافقة على طلب النقل الذي تقدمت به.

تمت.

كما حرص أن يزيل الرواية بتاريخ كتابتها

القاهرة ٢٦ – ٤ ٢٠٢٠

وأن يوضح أنها كتبت في فترة العزل بسبب انتشار وباء كورونا في عزلة وباء كورونا".

وربما قصد المؤلف ذلك لأكثر من سبب، فربما أراد أن يوضح أهمية فترة العزل ووقت الفراغ، وكيفية استغلالها في كتابة الرواية، وكذلك ربما أراد لفت انتباه القارئ إلى أن زمن كتابة الرواية يختلف عن زمن أحداثها، وما يترتب على ذلك من اختلاف في العادات والتقاليد، كما أن طول الفترة بين الزمنين قد تؤدي إلى نسيان الكاتب لبعض الأحداث التي خلدت في خانة الذكريات.

وخلاصة القول: إن جميع ما استهله الكاتب من ثنائيات ضدية بنيوية تخدم طبيعة النص، وقد ركز كل منهما على كلمات محددة بنيت بطريقة فنية وفق الكاتب بينها وبين معيارية السيرة من الموضوعات المختلفة التالية من شخصيات وأفكار وأحداث؛ معتبرا إياها مفاتيح لها دلالات يستدرج المتلقي من خلالها بوضعه في صورة الأمر الواقع للحدث الفعلي – الذي يعلن بدايته عن نهايته، وهذه ميزة فنية توضح مدى تمرس الكاتب وتمكنه من أدواته.

ثانيًا – تشابه الأفكار والقيم:

تتفق الروايتان في أنهما رواية سيرة ذاتية تقوم على تجربة مرَّ بها الكاتبان، ثم قدمها كل منهما في قالب روائي، فمن خلال الأحداث يمكن الكشف عن تفاصيل تلك المرحلة من حياة كل منهما، كما يمكن التأمل في الأفكار التي تم طرحها خلال الروايتين، والتي تؤدي دورًا بارزًا في تشكيل القيم والرؤى لدى القارئ أو المبدع؛ فتشكل ذائقة كل منهما، كما تبرز تلك الأفكار الفارق الزمني بينهما والتي أدت إلى وجود صراعات وصدامات متعددة داخل كل رواية وخارجها؛ فرواية (يوميات نائب في الأرياف) من أشهر محاولات الكتابة عن الريف – إن لم تكن الأولى – وتستند إلى أن الريف المصري محكوم بقوانين لم تنبع من حاجته، ولم تضع في اعتبارها مستواه المادي والاجتماعي بوجه عام، وهذه قضية أساسية نجدها مثبتة في قاعات المحاكم وسلوك الموظفين، ويسرد

توفيق الحكيم فيها مشاهدات من الحوادث والقصص التي عرضت عليه أثناء عمله في القضاء في أحد مناطق الريف المصري في ثلاثينيات القرن العشرين، ويعرض فيها لصورة حية قاسية ساخرة للحياة في الريف المصري.

والحكيم – "بحكم نشأته في القرية في أحضان التخلف الاجتماعي والبؤس والفقر – اشتدت رغبته في التخلص من هذه التقاليد، خاصة في وجود إحساس بالتناقض بين ظاهر مجتمعه الذي يحاول أن يلحق بالحضارة الأوربية المتقدمة وبين واقعهم المشدود بألف قيد إلى العادات والتقاليد القديمة".[١]

وتدور أحداث رواية يوميات نائب في الأرياف حول معاناة هذا النائب القادم من القاهرة المدينة عاصمة النور آنذاك على قرية صغيرة في الأرياف، والذي يقضى وقته في محاربة البعوض والحشرات، وخاصة (الفئران) وهو مشهد عبثي تكرر بتفاصيله نفسها في رواية طبيب أرياف. أما رواية (طبيب أرياف) فتعد حديثة التأليف حيث قام بنشرها عام ٢٠٢٠ وهي تجربة جديدة في الكتابة حول العالم الخفي للريف المصري في السبعينات؛ من خلال (علي) طبيب شاب يقضي تكليفه في الأرياف بعد تعرضه لتجربة قاسية في بداية حياته؛ فيبدأ رحلة جديدة إلى قرية منعزلة بالصعيد، يعاني هناك من الوحدة قبل أن يجد نفسه متغلغلا في تفاصيل الحياة اليومية، ويقع في حب الممرضة، ومن خلال قصة الحب ينسج الكاتب أحداث قصته ونقده للمجتمع بعد أن يكتشف أن القوانين البدائية مازالت هي السائدة؛ فهي رواية عن الحب والرغبة واليأس عن قرية تختزل العالم، يتصارع فيها البشر والقوى الحاكمة، وتمتلئ ذاكرت الرواية الخفية بطبقات الزمن المصري المتراكم.

---

١ عبد المحسن طه بدر – تطور الرواية العربية الحديثة في مصر – دار المعارف – ١٩٨٠ – ص٢٨

وبالنظر إلى رواية (يوميات نائب في الأرياف) نجد البطل يمضي في مسار يختلط فيه الإجبار والاختيار، ويغوص في عمق الصعيد المصري، فهو لم يختر رحلته، بل فرضت عليه قسرًا في قرار استبعاده عن القاهرة، بعد خروجه من المعتقل؛ مما يضفي على الرواية مسحة سياسية، وانطلاقًا من تلك اللحظة التي يقف فيها داخل محطة "الأتوبيس"؛ ليبحث عن وسيلة تنقله إلى القرية التي يجب عليه الوصول إليها سوف يتغير عالمه، وينسحب الماضي من تحت أقدامه، ويحل جو مغاير يحمل بصمات المعاناة والشقاء الموسومة بها معظم التجارب المشابهة، وخاصة في رواية (نائب في الأرياف).

ومن هنا يتضح التشابه بين الروايتين في الفكرة الرئيسة، وهي إلقاء الضوء على الريف ومعاناته، وإن كنا نلمح بعض الاختلافات في الأفكار والقيم الفرعية طبقا للسيرة الذاتية لكليهما؛ فبينما كتب الحكيم سيرة ذاتية مطعمة بالسخرية من أوضاع الريف والفلاحين، ركَّز قنديل على تيمة الرحلة والريف بين الماضي والحاضر، ومع ذلك يمكن للقارئ أن يكتشف بسهولة أن كليهما كتب عن الأرياف دون أن يمسها أو يعيشها.

ثالثا – البنية السطحية:

لكل نص أدبي بنيته الخاصة التي تحقق تماسكه ضمن إطارها الكلي؛ "فالبنية السردية لنص أدبي أو نظري تشكل كونًا منسجمًا ومستقلًا ذاتيًا؛ لأنها تحاكي الواقع وتعيد إنتاجه، وتتماشى معه بصورة ظاهرة وضمنية".[١]

"فالقصة كما يراها بروب – عبارة عن بنية حكائيه معقدة تسهم في تشكيلها وبنائها مجموعة من العلاقات والوظائف التي تنفذها في سياق قصصي

١ الحسين – تفكيك النص – تفكيك المصطلح النقدي – مجلة الفكر العربي المعاصر – مركز الإنماء الحضاري – بيروت – العدد ١٢ – إبريل – ٢٠٠٠ – ص٩٣.

معين"[١] ولذا فالبنية الكبرى في النص – أي نص – تتصف بالكلية والشمول وبأبعاد إطارية؛ فهي التي تؤطر البنيات الصغرى وتمنحها شرعية الوجود والتآزر مع غيرها داخل النسيج الكلي للحكاية الكبرى؛ لأنها تؤدي مهمة أو وظيفة في موضعها ضمن النسيج الكلي الذي يشبه تتابع العقد كل حبة تسلم للأخرى حتى تكتمل صورته النهائية.

وتتشكل رواية (اليوميات) عادة من مستويات؛ ففي المستوى الأول في رواية (يوميات نائب في الأرياف) النمط الإنساني (السيرة الذاتية) والمستوى الثاني يتصل بالحكايات المتضمنة داخل هذا الإطار، وهي المتصلة بالنمط الحكائي، ونجد في رواية (طبيب أرياف) – التي تعد يوميات مستترة – حكاية طبيب الأرياف هي الحكاية الإطار، وليست ضمن حكاية أخرى؛ حيث توجد حكاية كبرى تشكل إطارًا، ويتوالد ضمن هذه الحكاية الإطارية مجموعة من القصص والأخبار الأخرى التي تتناغم مع الحكاية الإطار وتتسق ضمن إطارها العام.

وبالمقارنة بين الروايتين نجد إطارًا في مقابل إطار، ومبنى حكائيًا كاملًا مقابل مبنى حكائي كامل آخر، ويمكن إدراك هذا التقارب والتشابه بين كلا الإطارين رغم التفاوت وما تبعه من تفاوت في التفاصيل والأحداث الفرعية، وفي حجم الروايتين فبينما جاءت رواية (يوميات نائب في الأرياف) في (١٤٨) (مائة وثمانية وأربعين صفحة) جاءت رواية (طبيب أرياف) في ضعف حجمها تقريبا (٢٨٠) (مئتان وثمانين صفحة) ومن خلالهما تبرز علاقة الأديب ببيئته

١ أميرة الكولي – البنية الحكائية في الأدب العربي – دراسة في ضوء المنهج البنيوي – دار التنوير – الجزائر – الطبعة – ٢٠٢٠ – ص١٥

ومجتمعه، فكل منهما لا يملك القدرة على التعبير فقط، بل يملك عقله وقدرته على التقاط بواطن الأمور.

والبداية هنا تكون للزمان والمكان فالرواية كفن أدبي يمتد نسيجها في الزمان والمكان ومن خلالهما يتضح المقابلة بين الطبائع واختلاف الظروف بين الريف والمدينة.

أ – الزمان:

للزمان دور أساسي في بناء جمالية الرواية الحديثة، والحقيقة أن هناك أزمانًا متعددة للروايتين، وليس زمنًا واحدًا ولكل دلالته؛ فهناك الزمن المباشر العام في ثلاثينيات القرن العشرين الذي كتبت ونشرت فيه الرواية – وإن كانت بالضرورة – أحداثها تدور في زمن سابق على الأقل بعشرين عاما؛ فزمن كتابة الرواية كان عمره تقريبا (خمسون عاما) ومنطقيا أن مرحلة عمله كنائب في الأرياف في بداية حياته العملية قبل تلك السنة بما يقرب من عشرين عاما تقريبا – أي في العقد الثاني على الأكثر من القرن العشرين، حيث دارت أحداث (يوميات نائب في الأرياف) وسبعينيات ذات القرن حيث دارت أحداث رواية (طبيب أرياف) ولدينا زمن ثالث، هو زمن كتابة رواية طبيب أرياف في عشرينيات القرن الحالي والذي بالضرورة ألقى بظلاله على الرواية التي كتبت بعد مرور نحو خمسين عاما على أحداثها.

وهكذا يبدو الزمن غير محدد بدقة خاصة في رواية (طبيب أرياف) التي تتضح فيها ظاهرة (انزياح الزمان)؛ فعلى الرغم من أنه يشير إلى زمن السبعينيات في بداية الرواية فإنه ينتقل إلى ذكر حادثة اغتيال السادات عام (١٩٨١)، ويتوقف أمام حدث الانتخابات الصورية التي أدت إلى قدوم الرئيس (حسني مبارك)؛ مما يسبب تشويها للقارئ، ويجعله يتساءل عن المدة الزمنية التي أمضاها الطبيب في الصعيد؛ رغم أن الإشارات الزمنية وسياق الأحداث توحي كما لو أنها عدة أشهر لا سنوات؛ أما الأحداث الفرعية للروايتين فتتفق في

عددها؛ فقد قسمت داخليا إلى (أيام) (ثنتا عشرة يوما) و (ثنتا عشرة جزءا) أي أزمنة متعاقبة، وهي على الأكثر عدة أشهر؛ فمنطقيا أن يكون (التكليف) عامًا على الأقل، وقد وصل خطاب الموافقة على النقل بعد مرور فترة ليست بالقصيرة منه، وهذا يتضح من كثافة الأحداث الامتياز) والسارد في كلتا الروايتين من خلال تقنية الوقفة الوصفية يعلق العنصر الزمني ليدفع القارئ نحو التأمل والتفكير. ورواية (يوميات نائب في الأرياف) أكثر انضباطا وتحديدًا من الناحية الزمنية؛ فقد بدأها من بداية عمله الفعلي كنائب في الأرياف، مع التركيز على أوقات الحزن والضيق؛ فلم يكتف بتقسيم فصول الرواية إلى يوميات، بل حرص على ذكر الساعة واليوم والتاريخ والتوقيت أكثر من مرة في ثنايا الرواية فيقول: "استيقظت اليوم متأخرًا؛ فقد سهرت أكثر الليل في التهام الأوراق المتأخرة. إذ بعد أسبوع تبدأ السنة القضائية الجديدة"، وربما كان ذلك عادة اكتسبها تتناسب مع ما يتطلبه عمله كوكيل نيابة وكتابة المحضر في ساعته وتاريخه.

أما رواية (طبيب أرياف) فبدأت بالمكان "حقول سوداء على مدى البصر، أرض محترقة تتصاعد من شقوقها أدخنة في خطوط متعرجة كأنها بقايا معركة تم حسمها" طبيب أرياف ص٥، حيث انهمك في وصف الرحلة إلى الأرياف من البداية تتخللها بعض لقطات – الفلاش باك – عن حياته السابقة، ولعل ذلك يفسر عدم إشارته للزمن في عنوان الرواية؛ فهو يركز هنا على النقلة المكانية من المدينة للأرياف، ورغم ذلك يمكن أن نرصد اهتماما بالزمن، ولكنه اهتمام من الناحية النفسية – إذا جاز لنا التعبير– ويتضح تداخل الزمان بالمكان في: "يصاب الغلام بالفزع، لا أدري لماذا... هل أنتظر عودته؟ أم أسرع قبل أن يرحل الأتوبيس؟ ... من بعيد تبدأ الكلاب في النباح تودع آخر أضواء النهار..." طبيب أرياف ص٢٣، وإجمالا فإن الكاتبين – عندما تتسارع الأحداث – يوظفان تقنية أخرى هي (التسريع) من خلال الجمل القصيرة المتواصلة لتحقيق غايتهما.

ب – المكان:

"إن ملامح الريف المصري تتغير بلا هوادة ليصير أقرب إلى كيانات حضرية مشوهة؛ فلا هو بالمدينة مكتملة المبنى والمعنى، ولا هو بالريف في سماته ومسمياته، كما يتضح من رواية (الأرض) لعبد الرحمن الشرقاوي ويوسف إدريس في أغلب أعماله الروائية والقصصية، ثم جاء يوسف القعيد وعبد الحكيم قاسم ومحمد البساطي وسعيد الكفراوي ويوسف أبو رية، وجعل هؤلاء الريف واحدًا من الموضوعات والأماكن الأساسية التي انشغلت بها الرواية العربية".[١]

والمكان هنا (الريف المصري) حاضرًا في الروايتين بداية من العنوان بصيغة الجمع (أرياف) بل أن الروايتين قائمتان على المكان. و"الريف والمدينة كلمتان متقابلتان بينهما تضاد وهوة واسعة لا يسهل العبور فوقها..؛ فهناك فروق بين الحياة في الريف والحياة في المدينة، وهناك ربما سوء رأي متبادل في النظرة إلى الإنسان وقدرته وقيمه؛ وإذا فإن المواجهة بين الريف والمدينة هي الوضع السائد وهذه المواجهة تأخذ أشكالًا وطرائق مختلفة منها الهجاء المتبادل وانعدام الثقة الذين يؤديان إلى صعوبة الاندماج إذا ما انتقل طرف إلى الموقع الآخر. إن المدينة تنظر إلى الريف على أنه متخلف، وفتح أبواب المدينة أمامه يؤدي إلى فقدانها لقدر من رفاهيتها ونظافتها، ويؤثر في الخدمات الراقية التي أصبحت حقا مكتسبا لها؛ حتى وإن كان الريف هو الذي يمول تلك الخدمات أو يسهم فيها بنصيب، أما القرية فتنظر إلى المدينة على أنها مقر السلطة المرادفة للتحكم والظلم ومقر السجن"[٢] كما يشير الحكيم في روايته قائلا: "ومضت الأحكام في جميع المخالفات على هذا النحو، ولم أر واحدًا من المخالفين أنه يؤمن بحقيقة ما

١ عمار علي حسن – الرواية والريف المصري الجديد – أكاديمية (بالعقل نبدأ) – الصفحة الرئيسية – الجزء الأول

٢ محمد حسن عبد الله – الريف في الرواية العربية – عالم المعرفة – ١٩٩٨

ارتكب، إنما هو غرم وقع عليهم من السماء كما تقع المصائب، وإتاوة يؤدونها؛ لأن القانون يقول: إنهم يجب عليهم أن يؤدها !" يوميات نائب في الأرياف ص٣٢، وحول نفس الفكرة دارت فكرة المنسي قنديل عن المدينة "المرة الثانية التي أراها متغيرة وأكثر زحامًا وقبحًا، عندما خرجت من السجن كانت معادية، الآن تبدو لا مبالية". طبيب أرياف ص٦١

يتضح أن الإشارات إلى الأماكن مؤثرة، وإن جاءت في رواية المنسي قنديل أكثر تأثيرًا وحاضرة بقوة في كل التفاصيل الصغرى والكبرى، بداية من وصف القرية وبيوتها ونوع المعمار المتجاور الذي يسكن فيه أهالي البلدة، ثم وصف غرفته في الوحدة الصحية أيضا وصف غرفة الفندق الذي نزل فيه ليلتين في البلدة المجاورة، وكذلك الحديث عن الشوارع ومحطات السفر وما تعج به من صخب فبراعة قنديل في الوصف الجغرافي الدقيق والحيوي يمكن عده من الركائز الأسلوبية المهمة في سرده؛ كما أننا نلمح تداخلا بين الزمان والمكان في بداية الرواية في فقرة وصفية بليغة "حقول سوداء على مدى البصر، أرض محروقة تتصاعد من شقوقها أدخنة في خطوط متعرجة، كأنها بقايا معركة تم حسمها، أتأملها مفزوعًا، ما الذي أحضر الحرب إلى هذا المكان؟" طبيب أرياف ص١، حيث افتقد رواية الحكيم هذا الوصف البلاغي واستبدلته بفقرة واقعية – في اليوم الأول – عما حدث له البارحة "آويت إلى فراشي البارحة مبكرًا؛ فلقد شعرت بالتهاب الحلق وهو مرض يزورني الآن من حين إلى حين" يوميات نائب في الأرياف ص١٢، ومن ثم يمكن رصد ملامح للتشابه في الزمان والمكان بين الروايتين، وكذلك يمكننا رصد العلاقة بين القرية والمدينة من خلال الروايتين وكيف تنامت وتنوعت على أيدي كتاب الرواية العربية، ورغم ذلك يمكن الوصول إلى استنتاجات مهمة فنية واجتماعية في كلتا الروايتين – رغم مرور عشرات السنين بينهما – ففي كلتيهما تبدو القرية (مكان الأحداث) قميئة مهزولة مستنزفة مجهولة الدور مع أنها مصدر البذل مما يؤكد أن "انفساح المكان ما بين القرية

والمدينة يتيح للكاتب الروائي إذا ما أحسن استخدام الإمكانات الفنية والفكرية أن يعرض لأمور من حياة الناس ومن أطوار المجتمع؛ مما يدل على شمول خبرته ودقة رصده وحسن تعليله وصدق تمثله لواقع الحياة، على نحو أجود مما لو طابق حدود عالمه الروائي بحدود عالم القرية".[١]

ج – الشخصيات:

يتشكل أبطال الرواية غالبا من مزيج من الحقيقة والخيال بنسب متفاوتة، وشيئا فشيئا تأتي الفرصة الحقيقية في بناء الصدق الفني لوصف العمل الإبداعي. والشخصية الرئيسة في رواية (يوميات نائب في الأرياف) هي شخصية الكاتب فهو الراوي والبطل، ولم يذكر اسمه تبعا لتيار رواية السيرة الذاتية آنذاك، ويعترف الحكيم بأن روايته سيرة ذاتية من البداية فأول ما يقابلنا في الصفحة الأولى من الرواية "لماذا أدون حياتي في يوميات؟ ألا أنها حياة هنية... أيتها الصفحات التي لم تنشر...! ما أنت بنافذة مفتوحة أطلق منها حريتي في ساعات الضيق" يوميات نائب في الأرياف ص١١؛ ف "الذات السردية في يوميات نائب في الأرياف وكيل نيابة ساخر كلف بالعمل في إحدى قرى مصر يقضي أيامه في جرائم مثيرة للشفقة ارتكبها محليون، وينتقل بين عدد لا نهائي من "الدوسيهات" القانونية فيما تمضي أمسياته الوحيدة مع رفيقه الوحيد وملجأه (الصحيفة)، وهكذا يصب وكيل النيابة بغضه للفلاحين والجهل المستشري؛ حيث القانون الفرنسي المستورد هو وحده السلطة الرمزية البريئة في نظر الحكيم "لا أحد برئ في قرية الحكيم عدا القانون ذاته الذي يمثل بنقائه وعدم تمييزه كليا الشرعية الأخلاقية لحداثة عالمية تأخذ شكل الأمة باعتبارها صنفا

١ محمد حسن عبد الله – المرجع السابق ١٩٩٨

مثاليا"[1]، بل أننا نجده تعمد عدم ذكر أسماء معظم شخصياته كالعمدة ومعاون النيابة والقاضي ووكيل نيابة طنطا والطبيب الشرعي، وربما كان الدافع أنه قصدهم بصفتهم الوظيفية وليس الشخصية فقصد أي عمدة وأي مأمور و... بينما نجد القليل من الشخصيات ذات مسميات ولكل اسم دلالته منها (عصفور) الذي ساعد اسمه في تشكيل شخصيته، وكذلك (ريم) التي قصد أن تكون اسم على مسمى وهي ظاهرة كانت متبعة آنذاك، فهذه الشخصيات قصد الكاتب أن يكون لها من اسمها نصيب أو نجد مثيلا لذلك على ما قد يوحي الاسم بنظرة (الاستعلاء) التي يتسم بها الحكيم.

أما في رواية (طبيب أرياف)؛ فالبطل هنا هو الطبيب (علي) وكأن المنسي يحاول التنصل من كونها رواية سيرة ذاتية محاولا إقناع القارئ بأنها رواية تحدث لكل طبيب أدى تكليفه في الأرياف في تلك الفترة. والملاحظ أن (علي) هو اسم بطل معظم رواياته، وهو عادة بطل مأزوم يعاني دائما؛ فمعاناة البطل في (طبيب أرياف) لا تقل ألمًا واغترابًا في رحلة سمرقند، وكذلك في رواية (انكسار الروح) فكلاهما أمضى مرحلة من حياته في الأرياف في قرية نائية سواء في وحدة التحقيق، والآخر في الوحدة الصحية فقواعد المكان هنا هي الحاكم الرئيس لكليهما رغم اختلاف الزمان – نسبيا – ومن ثم يتضح أن بطلي الروايتين عاشا حلمًا فرديًا رومانسيًا دون أن ينفصما عن الجماعة التي تحكمت في مصيرهما؛ فكل منهما (شخصية إيجابية) (في كونها محور اهتمام بقية الشخصيات وحولها تدور أحداث الرواية، ولكن المفارقة هنا ثبات كليهما على موقف المتفرج، وإذا كانت ثمة تحول أو تغير فهو (تحول سلبي) باتجاه التقوقع

١ سماح سليم – الرواية والخيال الريفي في مصر – بين ١٨٨٠: ١٩٨٥ – ترجمة عبد الرحمن الشرقاوي – المركز القومي للترجمة – ط ١ – ٢٠١٨

والاستسلام جعل وكيل النيابة يغلق قضية روايته الأساسية بتقيدها ضد مجهول، وجعل علي يغلق رحلته أيضا ويعود إلى المدينة بعد الموافقة على طلب النقل، ومن هنا فإن بنية الشخصية الرئيسة في رواية (يوميات نائب في الأرياف) تتشابه مع مثيلتها في رواية (طبيب أرياف) إذ يستخدم الكاتبان فكرة الشخصية الروائية المحورية، ومن ثم تحميلها بأفكار اجتماعية وسياسة؛ لخلق ضمن سياقات سردية تنتمي إلى تيار السيرة الذاتية في الرواية العربية، وتجلى ذلك من خلال تشكيل التطور الذي يطرأ على هذه الشخصية وهكذا تنمو فكرة (السيرة الذاتية) موضوعيا عبر النص وتجلياتها.

كما نلمح تشابها بين شخصية (العمدة) في الروايتين؛ فالعمدة فيها رمز للسلطة داخل القرية وبيته يعرف ب (دوار العمدة)، كما أنه رمزا للثراء والغطرسة "بيته أبيض مرتفع يطل من خلف الأشجار، يبدو مساحة محرمة على الجميع تحيط به بوابة حديدية" طبيب أرياف ص٤٥، وهذا رغم جهله "يوقع بإمضائه الذي يشبه نقش الدجاج تحت أقواله..." يوميات نائب في الأرياف ص٥٢، وهو رمز للسلطة والحكم وأداة للاتصال بالحكومة؛ ولذا يمكن خلعه بسهولة إذا لم يقم بهذه الوظيفة بهذه الدقة، وهو ما حدث حيث انتقلت العمودية في رواية (يوميات نائب في الأرياف) إلى آخر "يظهر أن العمدة الجديد من محاسيب الوزارة الجديدة" ص٩١

أما شخصية (المأمور) فقد كانت تقريبا متطابقة في الروايتين، فهو متغطرس متعال يريد أن يمتلك الجميع بسطوته ويستعرضها دائما "أجده جالسًا على مقعدي نفسه، مادًا ساقيه في الشمس، وهو ينفث دخان سيجارته في استمتاع، يلقي بالسيجارة وهي مازلت مشتعلة على الأرض" طبيب أرياف ص١٧٠، فلديه من يقوم بدلا عنه بكل شيء، حتى لو شكلية "يقول المعاون: أجرينا التفتيش يا فندم" يوميات نائب في الأرياف ص٤٧، ويعتقد أن مسؤوليته حماية الحاكم لا المحكومين.

كما نلمح تشابهًا بين مساعديهما (معاون النيابة) في (يوميات نائب في الأرياف) و (دسوقي) في (طبيب أرياف) وكيف أنهما شخصيتان روتينيتان، وفي الوقت نفسه يعدان نافذة الأديبين على القرية وأهلها، كما أن كليهما يلح في تفسير تصرفات الشخصية، كما في قول المنسي قنديل في تفسيره للحالة النفسية ل (فرح) كان يمكن أن يكتفي بشهقتها وبكاؤها عندما تلقت خبر مقتل جليلة... فتسأل "لا أعرف نوع الصداقة التي نشأت بينهما" طبيب أرياف ص١٨٦؛ فالقارئ من الذكاء أن يتوقع أن هذا التعاطف من (فرح) تجاه (جليلة) لأن حالتهما متشابهان رغم وجود بعض الاختلاف في التفاصيل، إلا أن المنسي قنديل ألح على تقرير هذا السبب، وعدم تركه للصدفة أو لاستنتاج القارئ. فقال: "لكن فجأة يتبادر لذهني خاطر مرعب، هل رأت نفسها في مكانها؟ هل قارنت ما حدث بيني وبينها بما حدث بين جليلة والخياط)؟ هل علينا جميعا أن ننتظر العقاب؟" طبيب أرياف ص١٨١

أما بقية الأسماء ذات الدلالة فها هي الممرضة الجميلة (فرح) التي وقع في حبها وما يوحي به الاسم من بهجة في مقابل (عطيات) و (علية) (جليلة) حتى نصل إلى (دسوقي السنجابي) ويمضي السرد بالضمير الأول على لسان البطل الطبيب (علي) فالأحداث كلها يرويها عن مرحلة من حياته أمضاها داخل وحدة صحيحة في قرية نائية، وهناك يواجه العبث مجسما في مجموعة من المفارقات الغريبة للطبيب، لكنها تعبر عن قانون المكان وآلية سيره، فهو محكوم منذ العصر الفرعوني للحكام والكهنة والتجار، وهذا المفهوم العتيق في التاريخ مازال يسري واقعًا حيًا وسيرورة الأحداث التي لم تمكن (على والشيخ عبد البر) من التصدي لها، بل يفضل الاستسلام لقوانين اللعبة ومنذ الصفحات الأولى للرواية يلامس القارئ إحساسًا بالتورط مع مصير البطل الذاهب مكرها إلى المجهول، ويوحد المنسي بين حالة بطل روايته وحالة بقية شخصياته؛ فجميع الأبطال لديه غارقون في حالة من الضبابية والعجز، ورغم ذلك يواصلون

المضي في مسارهم محاولين بجهد متعثر الانتصار لأحلامهم، وهذا يفسر حضور شخصيات ومغادرتها مسرح الأحداث في مفارقات غريبة كي يكتمل تشكيل الإطار العام للمشهد، وهذا ينطبق على شخصية (الصقر) و (العمدة؛ وزوجته) و (أبنوب) و (دسوقي السنجابي) و (محروس) (الريس أيوب) وغيرهم من الشخصيات التي تتشابه إلى حد كبير مع شخصيات الحكيم في حيرتها وعجزها، بل أحيانا في مسمياتها، فنجد أيضا لديه شخصية (العمدة) رمزا للسلطة المصغرة في الدولة (نموذج)، وأيا من الشخصيات في الرواية باستثناء وكيل النيابة المستفز – لا يستطيع أن يصل إلى روح القانون، ويصل نظرته الدونية للفلاحين، من خلال وصفهم من قبل وكيل النيابة بشكل جماعي بأنهم (ذباب وديدان...) ولذا كتب وكيل النيابة في محضر الشرطة "إن تلك الإجراءات التي تتبع في أعمالنا القضائية طبقا للقوانين الحديثة ينبغي أن يراعي في تطبيقها عقلية هؤلاء الناس، ومدى إدراكهم قدراتهم الذهنية، أو فلنرفع تلك المدارك إلى مستوى تلك القوانين".

وجاء الحضور النسوي واضحًا في الروايتين، ولكنه بدا مقتضبًا مبهمًا في رواية الحكيم حيث اقتصر على شخصية (ريم) أرملة قمر الدولة علوان التي تعلق بها البطل، بل وربما جميع الشخصيات، ولكن في الخفاء ودون أن يعبر عن ذلك إلا في إشارات بسيطة، وقد حامت حولها الشبهات، ولكنها ماتت ومعها لغزها الكبير. ولا نجد ذكر لشخصيات نسائية بعد ذلك إلا لشخصية (نبوية) الثانوية التي ترمز لسيدات القرية، بينما تعددت الشخصيات النسائية عند المنسي وناقش مع كل منها قضية من القضايا المجتمعية الشائكة حيث صرح المنسي قنديل في البداية بتعلقه ب (فرح) التي تعد المعادل الموضوعي ل (ريم) في رواية الحكيم، وإن أفسح لها المنسي لها مساحة أكبر، وهي الممرضة الشابة المتزوجة التي تعمل معه في الوحدة الصحية، وتبدو العلاقة معها إشكالية منذ البداية بسبب وجود تقاطعات اجتماعية ونفسية محكوم بها ضمنيا ثم اختيار

الكاتب كل صراعات وتناقضات المرأة عبر شخصها، مع ضرورة الإشارة عند الكلام عن شخصية فرح لوجود (وعي فطري) عندها يبدو في بعض العبارات أعلى من مستوى شخصيتها كممرضة ريفية كأن تقول واصفة حالها في الزواج: "...إنه ابن عمي. نحن نتزوج صغارا ونكبر معا.

أقول ببعض السخرية: ألا يحدث طلاق؟

تقول: يحدث موت". طبيب أرياف ص٨١

حيث جعل قضية زواجها من ابن عمها رغما عنها من أهم القضايا التي يحاول عرضها، وإكسابها دور الضحية لتنال تعاطف المتلقي، في مقابل (عطيات) و (علية) اللتان تمثلان نوعا آخر من الممرضات الأقل جمالا والأكثر شراسة مقارنة ب (فرح)، بالإضافة إلى المونولوج الداخلي لعلاقته مع حبيبته السابقة (فاتن) وفشله فيها بسبب السجن ولاعتقالهما؛ مما أدى إلى انتهاء العلاقة بينهما، وهناك أيضا السيدة جليلة المرأة الأرملة وتورطها مع أبنوب الخياط المسيحي بها من تناقض وصراع إنساني بين الحب والرغبة في الامتلاك، ولم تكن شخصيات المنسي رمزية مثل شخصيات الحكيم بل تميزت شخصيات المنسي بأنها أكثر حيوية تحمل رسالة الكاتب، وأكثر قربا ليفهمها القارئ بحيث يتفاعل معها ويشعر بما تشعر به كما لو أنهما نفس الشخص.

وتبدو الذات عند الحكيم ممثلة في البطل منزهة عن الخطايا، فقد ينتقد جميع الشخصيات ويوصمهم بأحكام مسبقة، بينما لا تبدو الذات كذلك في (طبيب أرياف) فالكاتب كان حريصًا على تبيان الصراعات النفسية وتعريتها وتقديمها بمنظور مجرد يعكس دلالته المستقلة عن الأحكام المسبقة، ورغم ذلك يمكن رصد تشابه كبير بين شخصيات الروايتين شكلًا ومضمونًا، مما يؤكد تأثر رواية (طبيب أرياف) برواية (يوميات نائب في الأرياف).

رابعًا – البنية العميقة:

وإن كان ما سبق من موازنة بين عناصر الروايتين من عناوين وأحداث وشخصيات وغيرها مما يمثل البنية السطحية لهما قد أوضح تشابها بين الروايتين فإن دراسة البنية العميقة للروايتين تؤكد هذا التشابه

تعني البنية العميقة تناول المعاني والإشارات الضمنية التي لم يعبر عنها الأديب صراحة، وهنا يقع العبء الأكبر على المتلقي الذي يتحول إلى منتج للنص بعد فك شفراته وإطلاق العنان لأفق توقعاته لأن ينتج معاني متنوعة للوصول إلى دلالات مختلفة ومتعددة.

وقد ظلت قضية الفن عند توفيق الحكيم قضية بناء وأسلوب، لا قضية إحساس وعاطفة، وهو يصدر الأحكام على الفن من هذه الزاوية؛ ولذا يفضل المسرحية على الرواية؛ لأن بناءها أكثر تماسكًا فيقول :"إن حياتي مفككة كالقصة المفككة أو الهيكل المزعزع الأركان أنا الذي لا يحب في الفن غير قوة البناء"؛ مما يؤكد طغيان طبيعة كمفكر وتغلغلها داخل إطار أفكاره في روايته. وقد استغل الحكيم أسلوب اليوميات في عرض أفكاره، ولما كانت هذه الأفكار عامة وغير محددة لا تصلح محورا لرواية فنية متماسكة البناء، فإنه يقدم قصة الفتاة (ريم) ويربط بينها وبين شخصية غريبة هي شخصية عصفور، ورغم ذلك لم تستطع حكاية (ريم) أن تربط بين أجزاء الكتاب ربطا كاملا، وكانت أشبه بالحكاية المنفصلة، وأقرب إلى صورة من الصور العديدة التي قدمها في الكتاب.

ومن هنا يصور الحكيم أبناء الريف بين خاضع لقوانين المدينة رغم أنفه ولم يقتنع بحكمتها أو صوابها، وبين فار منها لاجئ إلى قانون الريف الخاص المتمثل في تقاليده المسيطرة، حيث روى لنا تجربته "كوكيل نيابة" وما مر به من وقائع وأحداث مع الواقع والإدارة في إحدى قرى مصر – راسما صورة واقعية كلية لوضعية ريف مصر الاقتصادية والاجتماعية في ثلاثينات القرن الماضي...، ومع ذلك نجده محايدا حيال هذا الواقع، ويتأكد هذا المحور الأول

بوجود المحور الثاني الذي يعمل على تعميقه وليس التخفيف من وطأته، وهو من موظفي الدولة من رجال أمن وإدارة وقضاء: إنهم عابثون فاسدون غارقون في البحث عن منافعهم الشخصية لا جرم أنهم حريصون على تطبيق القانون حين يكون (أداة أخذ) ونهب من الريف؛ فهو هنا لم يهاجم السلطة القضائية، بل هاجم الفساد فيها، فالموظفون في الرواية يبذلون غاية جهدهم، ثم لا يعبأون به ولا بالفلاحين. وحين يكون طريقا لنيل حق بين القاضي السريع والقاضي البطيء تتجلى صور الفقر والتخلف وتعسف الأحكام دون أن يبحث في مستوى الممكن والبديل، وخاصة أنه أخذ على المؤسسات القضائية الإغراق في الشكليات والفساد؛ فالموظفون في الرواية يبذلون غاية جهدهم؛ ولذا فالجرم الحقيقي في الرواية ليس الفلاح، بل في قضاة الفلاح.

وهذا الموقف فسَّره (عبد المحسن بدر) بأنه نوع من (الاستعلاء) مارسه الحكيم على الريف وأهله بناء على تصور مسبق لفن الحكيم وعلاقته بالحياة؛ فهو لا يحكم على الواقع من خلال معاناته ومعايشته ولكنه يحكم عليه من خلال تأملاته الفكرية المسبقة ذات الطابع المثالي، فيقول "إذا كان انتماء توفيق الحكيم إلى الواقع المصري يبدو متعذرا، فإن الانتماء إلى الريف يكون مستحيلا"، والذي نجد له أمثلة جاهزة في الرواية، ولعل هذا الاستعلاء ما جعل هدف يومياته النقد الصريح للريف كما يتضح من تصويره بصراحة جارحة تزييف الانتخابات وسيطرة الواسطة حتى على حركة تنقلات القضاة وانتهازية الإدارة في السيطرة على عمد الريف واستنزافهم "وهكذا بقي الحكيم يلتقط الزوايا الحرجة في حياة الريف المصري؛ لأنه كان بمنزعه الديمقراطي وحاسته الحقوقية وتجربته العملية الأقرب إلى الريف، ومن هنا فإنه مهما كان من شأن (اليوميات) وموقفها من قضايا الريف؛ فإنها نبهت الاهتمام وأضافت الوجه الآخر للجريمة في الريف، فقدم رؤية واقعية معللة بالبنية الاجتماعية والموروث والعوامل لاقتصادية والحب

أيضا في هذا الرصد الشامل لمواسم الجريمة وأدواتها ودوافعها ونتائجها ع السواء".[١]

وعلى صعيد آخر نجد العالم الروائي المقدم في (طبيب أرياف) للمنسي قنديل به أنواع القسوة الإنسانية، التي من المكن أن تسحق الفرد في بوتقتها كصراعات السلطة والدين والثأر والانتقام ورقابة المجتمع، ولكن وسط هذا كله كيف يمكن التفكير في الحب والحكايات والغناء عبر تقاطعات البطل الشارد مع الشخصيات النسوية في العمل؛ حيث لحظات الضعف الإنساني ومواجهته لانهزامات الذات، خاصة حين يعرف الصواب ويعجز عن تنفيذه، ولعلنا في هذا الإطار (الربط بين البنية السطحية والبنية العميقة) نلمح عدة عناصر متشابهة بين الروايتين **منها:**

أ- **تدخُّل الكاتب في سرد الأحداث؛** فكلا الكاتبين يستخدمان تقنية (الوصف) في تعطيل سير الأحداث كلاهما يستخدم تقنية الوقفة لوصف مشهد أو مكان أو شخص باستخدام أدق التفاصيل كما في وصف (قنديل) للمدينة بعد أن عاد إليها "تخرج السيارة من المدينة الحديثة وتدخل الأحياء الضيقة التي لا تشعر بها إلا من خاض تجربة السيارة من الحديثة وتدخل الأحياء الضيقة التي تلتف حول القلعة، وقصور قديمة ومساجد وأسبلة..." طبيب أرياف ص٦١، ويتشابه ذلك مع مشاهد كثيرة عند الحكيم كما في وصفه للسيارة الكبيرة التي "كانت تحمل أكياسا ضخمة، مملوءة بمختلف الملابس القطنية والصوفية من معاطف وستر وسرابيل، وكذلك أنواع من الأحذية الجلدية لحساب متجر في القاهرة من المتاجر الشهيرة" يوميات نائب في الأرياف ص٥٧، وكذلك استخدام الاستطراد في السرد والحوار مما يبعد القارئ ويفصله عن أحداث الرواية، وهي تقنية قد

١ عبد المحسن طه بدر – المرجع السابق

أسهب في استخدامها الحكيم كما في قوله واصفا نفسه وطقوسه في التحقيق قاطعا الأحداث والقضية والمأمور و... "وتركت المأمور يفهم مرؤوسه ما يتبع وانصرفت إلى مكتبي بعد أن أوصيت المأمور أن يلحق بي مع المقبوض عليهما – فأنا لا أحب مطلقا التحقيق في دار المركز، وهي ليست داري؛ فرب المركز هو المأمور، ولا أرض لنفسي أن أكون في كنفه أثناء عملي، خصوصا في هذه القضية وأمام هذه البنية "ثم يستكمل السرد قائلا: وذهبت على عجل وأرسلت من يدعي كاتب التحقيق" يوميات نائب في الأرياف ص٦٧، واستخدم المنسي قنديل التقنية نفسها، كما في قوله في وصف بعض المشاعر أشبه بالمذكرات: "أواصل صرف الدواء، تضيق أنفاسي وتتشبث الأصابع بمعصمي... دعوات متصلة بأن أعلو... كيف يمكن أن أعلو وكل هذا الانكسار بداخلي... وهذا العالم يخلو من كل ما أصبو إليه..." طبيب أرياف ص٢١، فهنا يفصلنا حديث النفس هذا عن متابعة حالات المرضى ومواقفه الطريفة معها.

وفي أحيان أخرى نجدهما يستخدمان (تسريع الأحداث) فنجد الحكيم يستخدم هذه التيمة خاصة في التحقيقات لتشي بالتسرع في الأحكام أحيانا الذي يؤدي إلى الظلم؛ كما في عرضه لقضية طريفة حدثت بمحض الصدفة حين اتهمت امرأة أحد الأشخاص – الحاضر لقضية أخرى – زوج به في طابور العرض خطأ وأكدت أنه قاتل زوجها و"رقعت" بالصوت:

– غريميّ دمي. غريمي

– بينك وبينها ضغائن؟

– أبدا ياسيدي لا أعرفها...

– إذن ماسبب ادعائها عليك

– أنا عارفّ ... مصيبة عالصبح وارتمت علي...

– احجزه ياعسكري!

وألقي الرجل في الحبس الاحتياطي...". يوميات نائب في الأرياف ص١٠٦

وجاء (التسريع) كذلك في رواية طبيب أرياف، وإن كان استخدمه أكثر في مشاهده العاطفية التي جمعت بين المنسى قنديل وفرح كما في تصوير مشهد لقائه بها (فرح) لأول مرة فيقول: "رغم كل الهواجس أراها وهي قادمة، لا أرى وجهها الذي كان مخفيا تحت شال القطيفة الأحمر، لكنني أرى حركتها المذعورة تقف وتتلفت حولها، ثم تخطو فوق الأرض كأنها على وشك الوقوع في هوة عميقة أحس بذعرها لأنني أيضا مذعورا أضع بعض النقود التي لا أدري عددها فوق منضدة المقهى وأنهض واقفا، تراني منذ اللحظة الأولى،... تحدق في من تحت الشال، وأنا أواصل التقدم نحوها، تحرك يدها وتفرد كفها، تشير لي أن أتوقف..." طبيب أرياف ص١٥٨، وهكذا نجح الكاتبان في جعل القارئ يلهث وراء هذه الأحداث المتتابعة والقرارات السريعة التي يتخذها بطلي الرواية والتي تدل على شدة ارتباكهما وقلة خبرتهما.

ب-**الاعتماد على المصادفات لافتعال الأحداث داخل الروايتين**، فكيف كانت الأحداث ستسير لو لم يقابل (الحكيم) عصفور أو ريم؟ وإذا لم يزر العمدة والمأمور وغيرها من الأحداث الثانوية كحادثة التسمم التي وردت إليه إشارة تليفونية بوقوع حادثة تسمم في دائرة المركز: "امرأة تناولت من مطلقها فطيرة فظهرت عليها الأعراض وهي تتهمه بسمها للتخلص من النفقة الشرعية"... يوميات نائب في الأرياف ص١٢٣، ماذا سيحدث وإذا لم يقابل (قنديل) جليلة أو فرح والجازية وأيضا العمدة والمأمور كيف كان كل منهما سيكتشف الفساد الاجتماعي والسياسي؟ مما يجعلهما أحيانا يستخفان بعقلية القارئ، ويصيب البناء الفني للرواية بالضعف والتفكك، وإن كان ذلك يتضح أكثر في رواية الحكيم التي ربما لم يربط بين أحداثها وحكاياتها إلا محاضر التحقيق، بينما أحكم المنسي قنديل قبضته على الخط الدرامي للأحداث ونجح في استخراج

حكاياته منه بشكل أكثر منطقية؛ مما ينم عن احترافية نتجت عن خبرته الطويلة في هذا المجال.

ج- **الصراع بين العاطفة والواجب ذلك الصراع الذي عاشه البطلان في الروايتين،** كما يتضح في حيرة القاضي بين عمله في التحقيق والنيابة وبين انجذابه وإعجابه ب (ريم) إحدى المشتبه فيهن في القضية فيقول: "ولم يمض قليل حتى كنت في حجرتي جالسا إلى مكتبي أطيل النظر إلى الباب نافذ الصبر منتظرا قدوم الفتاة، كأنه موعد لقاء..." يوميات نائب في الأرياف ص٦٧، ويذكرنا ذلك بموقف الطبيب (علي) من (فرح) الممرضة وحيرته بين حبه لها وبين تأنيب ضميره؛ لأنها متزوجة وخاصة بعد مساهمته بطريق غير مباشر في موت زوجها عندما طلب إمداده بالمال ليهيم على وجهه في الصحراء ربما يصل إلى بلاد النفط "هل كانت هذه فرصتي حتى أتخلص منه؟ وما الفرق أن تأتي فرح إلي وهي أرملة وليست مطلقة؟ هل يمكن أن أكون شريرا لهذه الدرجة؟ ولكني لم أختر شيئا له، هو الذي اختار مصيره بنفسه، ولكنها مخاطرة مزدوجة، فيها الموت والضياع في الصحراء، وفيها كل أحلام الثراء عندما يصل إلى البلد البترولي المجاور، ينظر إلى وأنا جالس في حيرتي، كانت حيرته أقل مني، لا تتنازعه إلا رغبة واحدة هي الرحيل بينما تتنازعني أكثر من رغبة، شعور غامر بالأنانية وشعور بالخوف من المشاركة...". طبيب أرياف ص٢٢٤

د- **النقد اللاذع للريف المصري** بجهله وعاداته وتقاليده، والذي ركز عليه كلا الكاتبين وإن استخدم الحكيم ألفاظا لاذعة وتشبيهات شديدة القسوة، كما في وصفه للمرضى في المستشفى "ورأينا المرضى التافهين من أصحاب "الزعابيط" الزرقاء يتناولون في نهم حساءهم في أوان صغيرة من الألمونيوم وينظرون إلينا ومعنا الحكمباشي كما ينظر القردة في حديقة الحيوانات إلى الحراس مع كبار الزائرين" يوميات نائب في الأرياف ص٤٩، وكذلك يوضح أكثر صور الريف

البشعة (قصة المرأة التي ماتت وطفلها نتيجة جهل (الداية) "وقد اكتفت وزارة الصحة بأن سحبت من هذه الداية (الصحية) التصريح، ولكنها لم تغير النظام وهي تعلم أن ألوف الأطفال يموتون على هذه الصورة كل عام" يوميات نائب في الأرياف ص٩٤، ويتحدث المنسي قنديل حديثا متشابها في سخريته من القرية واصفا وسيلة المواصلات الوحيدة بينها وبين المدينة قائلا "الأتوبيس كان مزدحما لآخره بالبشر والحيوانات؛ رجال ونساء وأطفال وماعز وبعض الأوز، يتقافزون مع حركة الأتوبيس على الطريق صعودا وهبوطا... يسير بمحاذاة ترعة واسعة.. مرة أخرى أسمع الرجل الذي بجانبي يقول: اسمها البحر المحيط... وأخيرا ينصحني جميع من في الموقف بركوب هذا الأتوبيس المتداعي، يطلقون عليه (أحلاهم)..." ومن هذه الصورة الساخرة البدائية للقرية وسكانها يصل إلى حقيقة مؤلمة يطرحها على لسان أحد أهلها قائلا: "الموت في بلدتنا سهل، نحن نموت لأسباب تافهة؛ لذا فإنقاذ روح من الموت عندنا فعلا معجزة حقيقية". طبيب أرياف ص٣٧

ولعل من أوضح تجليات رواية (يوميات نائب في الأرياف) على رواية (طبيب أرياف) مشهد (الفئران) في بداية الروايتين دلالة على القرية وما تعانيه من حياة قاسية تصدم النازحين إليها من المدينة؛ فيقول في اليوم الثاني (١١ أكتوبر) يقول وقد أصابه التهاب الحلق "فعصبت على رقبتي خرقة من الصوف، عمرت بقطع الجبن العتيق ومصايد الفيران الثلاثة، ونصبتها حول سريري كما تنصب الألغام الواقية حول سفينة من سفن (الصليب الأحمر)". يوميات نائب في الأرياف ص١٢

ويتكرر مشهد الفئران في رواية (طبيب أرياف) رغم مرور عشرات السنين، يأتي التحذير من الفئران على يد دسوقي "حذار من الفئران "تحذير متأخر"، أفاجأ بأجسادها الداكنة تتقافز هابطة في عكس اتجاهنا، فئران لم أر مثل حجمها من

قبل، أقول مذعورا: إنها ضخمة، يقول في هدوء: لا تلق لها بالك هذه فئران الحقول، مثل أهل قريتنا منفوخين على الفاضي..". طبيب أرياف ص١١

ويكتمل المشهد بعدما تركه دسوقي وحده "أسمع صوت الفئران وهي تقرض عقب الباب، تحاول أن تجد ثغرة تنفذ منها للداخل" والمدهش أن كلا الأديبين قد ألفا هذا المشهد بعد ذلك ولم يعد يغضبهم ولا يخيفهم وربما يكون الاختلاف في المشهدين هو أن الحكيم واجه فئرانه بشجاعة – معهودة آنذاك – وحاربها بالمصيدة وقطع الجبن، بينما ترفع عن ذلك قنديل ابن المدينة – المعاصرة – وترك مهمة قتلها لمساعده دسوقي.

هـ – **إسقاط فساد الأرياف على فساد المجتمع**؛ باعتباره نموذجا للدولة: فالحكيم يرى القرية التي يتحدث عنها رمزا لكل القرى، وربما جاء العنوان من هنا (الأرياف) وربما رمزا للدولة كلها فيقول: "إن القرية، ككل قرية اليوم في مصر بها عائلتان قويتان أو أكثر تتنافس في العمدية، وكل منها ينتمي إلى حزب من الأحزاب التي تتنازع الحكم، ولماذا تريد أن يكون الحال في القرية غيره في الدولة؟ وهل القرية إلا مصغر الدولة". يوميات نائب في الأرياف ص٩١

ويلمح المنسي في روايته لهذا في أكثر من موقع، كما أننا نجده يصرح بذلك أحيانا كما في قوله: "نسير إلى مخزن الأدوية للمديرية، بالطبع لا يأبهون بكشف الأدوية الذي أقدمه لهم، أنواع كثيرة غير موجودة الذي أقدمه لهم، أنواع كثيرة غير موجودة، وأصناف أخرى لا أحتاجها، ولكن لابد أن آخذها"... طبيب أرياف ص٣٠، على ما في ذلك من تشابه في نقد الفساد في كلتا الروايتين.

و – **تشابه المسكوت عنه في الروايتين**: تتكاتف الأحداث في الروايتين لإظهار الخلل في منظومة القيم من خلال الفساد المجتمعي بأنواعه المختلفة، سواء كان فسادا إداريا أو أخلاقيا أو سياسيا، وتحاول الروايتان طرح نماذج وشواهد متعددة عليه في كافة المجالات لتأكد فساد المنظومة كلها، فالقضاء والطب رغم بعد مجاليهما إلا أن الفساد يوحد بينهما؛ فالفساد الإداري هو ما جعل

الطبيب الشرعي يكتب شهادة وفاة السبب فيها (هبوط حاد في الدورة الدموية) رغم معرفته أنها جريمة قتل، وهوما جعل المأمور يتواطأ معه مبررا ذلك بقوله "دائما لا يوجد شهود، لا شهود إثبات ولا شهود مصادقة لم ينطق أحد بحرف يجعلنا نمسك طرف خيط أو شكوى نبدأ منها تحقيقنا، لم يكن هناك بد من أن نغلق القضية مثل عشرات القضايا التي تصيبنا باليأس". طبيب أرياف ص١٨٩

وهذا الفساد جعل الفقراء يهربون عبر رحلة الموت ليس فقط من الفقر، ولكن من قسوة السلطة كما يتضح من حديث (جازية) إحدى ملكات الغجر "يهربون من قسوتكم، الحياة قاسية بشكل عام، ولكنكم تزيدون من قسوتها، أنتم لا تمسكون إلا بخناق الضعفاء الذين يعيشون على الفتات وتريدون أن تشاركوهم هذا الفتات" طبيب أرياف ص٢٧٣، على ما نلمحه من تشابه مع رواية الحكيم التي أشار فيها إلى ذلك من خلال إحدى قضاياه الضاحكة الباكية التي عرضها في يومياته:

– إنت سرقت كوز الذرة؟

– فأجاب الشيخ لفوره من جوف مقروح. من جوعي

فنظر المساعد إلى وقال في لهجة الانتصار: اعترف المتهم بالسرقة"

فقال الرجل في بساطة: من قال أني ناكر، أنا صحيح من جوعي نزلت في غيط من الغيطان سحبت لي كوز!

– ووقف القلم في يد المساعد، ولم يعرف ماذا يسأل بعد ذلك، والتفت إلى يستجدني، فنظرت إلى الرجل سائلا:

– سين، يا رجل لماذا لا تشتغل؟

– جيم، ياحضرة البك هات لي الشغل وعيب علي إن كنت أتأخر، لكن الفقير منا يوما يلقى وعشرة ما يلقى غير الجوع.

– إنت في نظر القانون متهم بالسرقة.

– القانون ياجناب البيك على عنينا وراسنا. لكن برده القانون عنده نظر ويعرف إني لحم ودم ومطلوب لي أكل.

– يحبس المتهم احتياطيا أربعة أيام ويجدد له...

وهكذا نلمح تشابها بين الروايتين في عرض قضية الفقر، ولكن الاختلاف في المعالجة، فلا يمكن أن يعالجها قنديل بسرقة (كوز الذرة) مثل الحكيم؛ بل ابتكر حلولا عصرية وهي الهروب عبر الصحراء إلى بلاد النفط، ولكن المحزن – من جراء الفساد – أن كلاهما دفع الثمن دون ذنب سوى الفقر؛ فسجن سارق (كوز الذرة) وعادت مئات الجثث من رحلة الموت عبر الصحراء.

ولعل أفضل نماذج الفساد السياسي المسكوت عنه والمستشري في المجتمع المصري من القمة وحتى القاع، والذي تتضح فيها تجليات رواية (يوميات نائب في الأرياف) على رواية (طبيب أرياف) – موضوع (الانتخابات)؛ فكلاهما طرح القضية وعرضها بفكرتها وأحداثها وأبطالها، بل ونفس السيناريو تقريبا فكلاهما (الحكيم) و (قنديل) يزج بهما في الانتخابات – رغما عنهم – وإن جاء ذلك منطقيا في اليوميات بصفة البطل (وكيل نيابة) فطبيعي أن يكون مشرفا على الانتخابات في دائرته، نجد (قنديل) تحايل على ذلك بأن جعل الوحدة الصحية دائرة انتخابية وهو رئيس اللجنة، أما المأمور فيقوم بنفس الدور في الروايتين، وربما تتشابه كلماته وتلميحاته وتهديداته في الروايتين، على ما في تلك المفارقة من تأكيد أن الأوضاع كما هي، والفساد باق رغم مرور عشرات السنين، فها هي محادثة هزلية مريرة بين المأمور ووكيل النيابة تؤكد ذلك:

"الانتخابات ماشية بالأصول.

– في فالدنيا انتخابات بالأصول؟

– قصدي بالأصول: مظاهر الأصول

– دي دايما طريقتي في الانتخابات: الحرية المطلقة، أترك الناس تنتخب على كيفها لغاية ما تتم عملية الانتخابات، وبعدين أقوم بكل بساطة شايل صندوق

الأصوات وأرميه في الترعة وأروح واضع مطرحه الصندوق اللي احنا موضبينه على مهلنا"؛ ليؤكد هذا المعنى قنديل بعد عشرات السنين في انتخابات تولية (مبارك) (بعد مقتل السادات) في حوار اتضح فيه بعض التغيرات الشكلية على عملية الانتخابات ومزيد من الجرأة من الكاتب: خاصة وإن الرواية كتبت بعد الثورة (وسقوط حكم مبارك بعدة أعوام).

" – أنت تعرف أننا نظريا بلا رئيس جمهورية...

– كنت أعتقد أن نائبه قد تولى السلطة بدلا منه وأن الأمر قد حسم

– الأمر حسم فعلا، ولكن النظام في حاجة إلى غطاء من الشرعية، وهذا هو دور لعبة الانتخابات.

– أقول: أعرف ذلك، ولكن ما دخلي بهذه اللعبة

– هذه المرة ستكون جزءا منها، هذه الوحدة ستكون مقرا انتخابيا وستقوم أنت بالإشراف على عملية تصويت (خمسمائة صوت)

– أهتف معترضا وما شأني بهذا الأمر، أنا موظف في وزارة الصحة وليس الداخلية

– أعرف ذلك، ولكنها انتخابات رئاسية يعني فوق رؤوسنا جميعا، ويجب أن تكون حرة نزيهة لا تتدخل وزارة الداخلية فيها، ألا يروقك ذلك...؟

– هل هناك أهمية لهذه الأصوات؟ هل ستأثر حقا على الانتخابات؟

– يضحك وهو ينهض واقفا ويقول، لا أحد يفوز بصناديق الانتخابات، وكما أقول لك من قبل، إنها لعبة وعلينا جميعًا أن نشارك فيها". طبيب أرياف ص١٧٣

وهكذا نرى التشابه الذي ربما يصل إلى حد التطابق في وجهتي نظر الكاتبين حول الانتخابات ودور الشرطة فيها، ومع ذلك فقد عبر عن ذلك قنديل بشيء من الإسهاب والتفصيل، حتى أنه أفرد لها فصلا كاملا، خاصة بعد مروره بعدة تجارب انتخابية أراد أن يختزلها ويعبر عنها جميعا في مقابل الحكيم وتاريخ روايته الذي يؤكد حداثة عهده بتجربة الانتخابات، ومن هنا تحدث في البداية عن

الأدوات فقال على لسان المأمور "لقد أحضرت الأمانة بطاقات الانتخاب والصندوق المغلق بالشمع الأحمر وزجاجات الحبر الزفر، كل أدوات المسرحية موجودة... يجب أن تكون المسرحية محبوكة" طبيب أرياف ص١٩٤، مما يوضح تأثير الزمن في ابتكار سبل وأدوات جديدة للفساد السياسي.

وعندما لم تتم العملية الانتخابية – حيث منع الخوف أهل القرية من التصويت – نفاجأ بنفس موقف المأمور في يوميات الحكيم، وإن كان أشد قسوة، فقد أجبر الطبيب على ملء الاستمارات، ثم أشار هو على كشوف الناخبين بينما أتى مأمور الحكيم بصندوق آخر "موضبينه على مهلنا" أي لم يشرك الحكيم في هذه الجريمة، وقد تمادى مأمور قنديل في سطوته حيث "يصر تحت تهديد السلاح بتمزيق البطاقات الرافضة واستبدالها بأخرى موافقة" والكارثة الحقيقية أنه يبرر ذلك معتقدا "الأغلبية المطلقة الموافقة الجماعية التامة هي مسؤوليته كمأمور مخلص" طبيب أرياف ص١٩٥، غير آبه بوجود القاضي وغيره من أعضاء مكتبه؛ مما يوضح استشراء الفساد الذي جعل سلطة الداخلية تعلو على السلطة القضائية.

وغير ذلك من إشارات يضيفها قنديل لتأكيد فساد الشرطة في كونها تقبض على بعض الأشخاص دون تهمة قبل الانتخابات وتتركهم بعدها "لابد أن نفعل ذلك إنه جزء من طقوس الشرطة في كل مناسبة سياسية مهمة، يجب القبض على هذا الصنف من البشر (دعاة الحرية) حتى تسير الانتخابات في هدوء، لا تقلق بالك سنفرج عنه فور انتهائها". طبيب أرياف ص١٩٢

وقد يكون قنديل تجاوز كل الخطوط الحمراء في حديثه على لسان مدرس اللغة العربية عن الرئيس الأسبق وتحليل صورته وبريق عينيه الذي يعكس "طموحا واضحا... ورغبة في الاستئثار.... سوف يعمر طويلا... الابتسامة غير المبالية... لا شفقة ولا تعاطف... شهوة حب التملك... سيكون أكثر ملوك مصر ثراء" طبيب أرياف ص١٩١، ومن جديد نلمح طيف (ثورة ٢٥ يناير) وتبدل الأوضاع ونلمس تأثيره على جرأة قنديل من جهة، وقدرته على تحليل الأحداث

السابقة وعرضها على أنها مجرد تنبؤات؛ ومن هنا فكلتا الروايتين رصدت الفساد في الانتخابات وما ينم عن قيم مفتقدة مسكوت عنها كالعدل، والأمانة، والحرية، والديمقراطية.

والمؤلم أن الروايتين رغم البعد الزمني بينهما يتمتعان بنفس النظرة التشاؤمية؛ فمنظومة الفساد هذه قد نسجت خيطوها كالعنكبوت حول رقاب الجميع ولا أمل للفكاك من أسرها، "لم أكن أشكو... مجرد محاولة للبحث عن بداية جديدة في مكان جديد، يقول ضاحكا: أي بداية، وأي جديد؟ مصر كلها بلد قديم ولا يوجد فيها أي شيء جديد لا مكان ولا وظائف، ..." بهذه النظرة اليائسة قيد الكاتبان الجريمة التي يعرضانها في الروايتين ضد مجهول رغم أنه معروف لديهما (إنه الفساد الإداري والسياسي والعادات والتقاليد) الذي جعل الحكيم يقيد جريمة مقتل علوان قمر الدولة ضد مجهول "تحفظ القضية لعدم معرفة الفاعل... إلخ إلخ" وجعلت (قنديل) أو الطبيب الشرعي يكتب شهادة وفاة (جليلة) بأنه (هبوط حاد في الدورة الدموية) وليس جريمة قتل، ثم الهروب من المشهد بعد الموافقة على طلب النقل.

خامسا – اللغة والأسلوب:

تعد الكتابة فنًا لغويًا إنتاجيًا يتطلب قدرات أكثر مما يتطلبه باقي فنون اللغة الأخرى؛ فالكتابة عملية مركبة تتضمن عمليتي تحليل الرسالة اللغوية وتركيبها؛ فالكتابة السردية فن كتابي قائم على الانتظام والتتابع وإجادة السياق، وهذا يظهر في كلام ابن منظور عن مادة (س رد) يقول: "السرد في اللغة: تقدمه شيء إلى شيء تأتي به متسقا بعضه في أثر بعضه في أثر بعض متتابعا سرد الحديث ونحو يسرده سردا إذا تابعه، وفلان يسرد الحديث سردا إذا كان جيد السياق له".[١]

١ ابن منظور (ب – ت) – لسان العرب – تحقيق عبد الله علي ومحمد حسب الله وهاشم الشاذلي – القاهرة – دار المعارف – المجلد الثاني – ١٩٨٧

والسرد قائم على تقديم نص سردي متماسك مترابط ومنتظم تمت صياغته بصورة جيدة، وهذا مشار إليه في قول ابن منظور "جيد السياق له" وهذا المعنى المعجمي لمادة سرد يعطي تنوعا ويجعله وفقا لما ذكره (غريماس) "خطابا ذا طبيعة مجازية".[1]

واستخدم الكاتبان كلمات متعددة الرؤى وجماليات روائية من تشبيهات واستعارات، وإن تفوقت رواية (طبيب أرياف) في التناسق بين أجزائها عند مقارنتها برواية (يوميات نائب في الأرياف)، ونجح الكاتبان في توظيف لغة الحوار في كشف أحاسيس وردود أفعال الشخصيات القائمة بعبء توصيل الفكرة الدرامية للأحداث خاصة عندما أخذ الكاتبين دور الراوي؛ مما يضفي على العملين نوعا من المصداقية، واستحواذ كلا الكاتبين بلغة الحوار لشخصيات الروايتين وكأنهما وسيط بينها وبين القارئ، وربما تكون تلك الظاهرة مميزة لروايات السيرة الذاتية لأن الكاتب يجعلنا نرى بقية الشخصيات من وجهة نظره وينطقها بما يريد ويجعلها تتحدث بلسانه، ولعل هذا ما يفسر أحيانا كون الشخوص تتحدث بلغة أعلى من مستواها التعليمي والاجتماعي، وإن كانت هذه الظاهرة تتضح أكثر في رواية (يوميات نائب في الأرياف) كما نرى في شخصية (الشيخ عصفور) فرغم تصويره على أنه مجذوب جعله الحكيم (حكيما) من خلال (الأزجال) التي يقولها:

"فتش عن النسوان،
تعرف سبب الأحزان
ورمش عين الحبيبة
يفرش على فدان...". يوميات نائب في الأرياف ص٢٣

١ شوكت المصري – تجليات السرد في الشعر العربي الحديث – سلسلة دراسات أدبية – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ٢٠١٥

ومع ذلك يمكننا أن نلمح هذه الظاهرة على استحياء عند المنسي قنديل (مثال) ولعل ذلك ما يفسر مثلا حديث (فرح) الأعلى من مستواها التعليمي والاجتماعي أحيانا كما أن كليهما نجح في توظيف الحوار في التعبير عن الفساد سواء عن الفساد الإداري عند الحكيم كما في قوله عند طلبه من المأمور المساعدة في الكشف عن الجاني في إحدى الخناقات في القرية فقال في الحال:

" – المركز مش فاضي اليومين دول للخنق والحرق..

– عجايب... أنتم لكم شغل غير المحافظة على الأمن؟!

– يعني حضرتك مش فاهم؟

– لأ مش فاهم!

نترك الانتخابات ونلتفت للقتل والخنق؟

– طبعا

– التعليمات اللي عندنا غير كده!". يوميات نائب في الأرياف ص١٠٠

وقد قصد الكاتب هنا استخدام العامية في الحوار ربما لأنها –من وجهة نظره –أقدر على توصيل الإيحاءات وما بين السطور للقارئ بنجاح؛ رغم أن الفصحى بألفاظها المختلفة ودلالاتها المتعددة قادرة ليس فقط على التعبير عن السطور وما بينها بل وما وراءها ،ولعل من أوضح صور صدى اليوميات في رواية (طبيب أرياف) أننا نجد نفس هذه الصورة بل نفس قصة الانتخابات وتلطخ يد المأمور بتزويرها وبنفس الأسلوب تقريبا، علاوة على استخدام نفس اللغة وخاصة اللهجة العامية أيضا فيها وربما لنفس الأسباب فالمأمور في كلتا الروايتين يمثل السلطة والسطوة، وكذلك نجد هذا الوصف التفصيلي لما يحدث في الانتخابات على لسان المأمور في كليهما على لسان المأمور: فمضى المأمور يقول "دي دايما طريقتي في الانتخابات: الحرية المطلقة، أترك الناس تنتخب على كيفها، لغاية ما تتم عملية الانتخابات، وبعدين أقوم بكل بساطة شايل صندوق الأصوات وأرميه في الترعة، وأروح واضع مطرحه الصندوق اللي احنا موضبينه

على مهلنا" يوميات نائب في الأرياف ص١٢٠، ويضيف المنسي قنديل بعض العبارات الأكثر تحررا حيث يعزي السبب في التزوير إلى الفراعنة؛ "حيث كانوا يزيلون نقوش الفرعون القديم ويستبدلونها بنقوش الفرعون الجديد كان هذا أقدم أنواع التزوير" طبيب أرياف ص١٩٢، وقد استبدل المصريون تلك النقوش حديثا بصور كل رئيس.

علاوة على استخدام بعض الألفاظ والتعبيرات العامية في الروايتين للتعبير عن البيئة الريفية "مش ادلعدي حضرتك طالب تعرف اسمها؟ اسمها نبوية" يوميات نائب في الأرياف ص١٢٦، ويظل الحكيم متمسكا ببعض التعبيرات العامية حتى نهاية الرواية فيقول في آخر مشهد فيها "مبسوط! أدحنا خلاص سددنا كشف الجنايات" وكذلك (المنسي) الذي استخدم كلمات تحاكي الواقع في الريف المصري مثل ألفاظ (الرتينة) وإن جاءت العامية أقل عنده؛ فقد حاول تطويع الفصحى للتعبير عن المواقف المختلفة في الرواية – فعادة يعتمد الأديب السياق والوضع الاجتماعي للمتكلمين؛ حيث تعد اللغة أحيانا وسيلة للنقد الاجتماعي".[١]

"فالحبكة أو العقدة هي الإطار أو الخط الأساسي الذي يربط المواقف والأحداث في نسق متتابع بطريقة أو بأخرى وبصرف النظر عما إذا كانت بسيطة أو معقدة مركبة".[٢]

وقد حاول الأديبان التوفيق بين بنيتي الروايتين السطحية والعميقة من خلال (الحبكة): والحبكة هي سلسلة الحوادث التي تقع للتأكيد فيها على الأسباب والنتائج وقد عرضها حامد عبد اللطيف قائلا "إنها أساس البناء الروائي؛ لأنها تشبه في أهميتها بالنسبة للرواية أهمية الهيكل العظمي للجسم البشري لأنه يعطي الكائن

١ عبد المحسن بدر – تطور الرواية العربية – دار المعارف – ١٩٨٠

٢ نبيل راغب – موسوعة الإبداع الأدبي – لونجمان – القاهرة – ١٩٩٦ – ص١٢

البشري تكوينه ويجمع أعضاءه كلها معا"[١] ولذا لابد للكاتب – في نهاية روايته – أن يراعي اتساق النتائج مع معطيات الأحداث وطبائع الشخصيات.

وبمقارنة رواية (يوميات نائب في الأرياف) برواية (طبيب أرياف) نجد الأولى تقوم على عقدة رئيسة هي (مقتل قمر الدولة علوان) تتخللها مجموعة من العقد الفرعية؛ حيث استعانت الرواية بالكثير من الأحداث الفرعية التي حولت الرواية إلى مقاطع أو مشاهد، وهو ما أصاب البناء الفني للرواية بالضعف والخلل وتوالى الأحداث حتى تصل إلى ذروتها وتستحكم حلقاتها ولكنها لم تنفرج في النهاية ولم يصل الكاتب لحل لها في النهاية، بل زادت حبكتها بالجرائم الأخرى المتشابكة؛ فقد بالغ الكاتب في عقد حلقاتها لدرجة أنه لم يستطع فكها، وربما قصد الكاتب ذلك لإظهار مدى سطوة الفساد المجتمعي والإداري المتغلغل في القرية وصعوبة القضاء عليه.

أما رواية (طبيب أرياف) فقد اشتركت مع رواية (اليوميات) في المشاهد المتعددة والقفزات في بعض أحداث الرواية إلا أن هذه القفزات لم تصب البناء الفني للرواية بالخلل، ولم تشتت ذهن القارئ أو تفصله عن الأحداث العامة، ورغم حبكة الرواية المنتظمة وتسلسل أحداثها وصولا إلى الذروة إلا أننا نجد الكاتب لم يضع نهاية مغلقة للرواية فلم يقدم حلا لعقدتها أو بالأحرى عقدها، بل ترك نهايتها مفتوحة وترك المجال للقراء ليضع كل منهم نهاية لأحداث الرواية حسب توقعاته.

فكلتا الروايتين تتمحوران حول فكرة استغلال الفلاح على يد الحكام وجباة الضرائب وعلى جانب آخر شخصية الفلاح الذي جسد التخلف المخجل والجهل من خلال صراع الرحلة والمنفى الإجباري ثم تشعبت إلى صراعات أخرى تؤكد

١ حامد عبد اللطيف – قضايا الفن الروائي في أدب يوسف السباعي – مخطوط كلية الآداب – جامعة طنطا – ص٢٤٤

انكسار الذات مهما حاولت التمرد والتي لم تتضح مباشرة في رواية (يوميات نائب في الأرياف) حيث بدأها باليوم الأول (١١ أكتوبر) في الريف دون التعرض لما قبل ذلك من أسباب لهذه الرحلة أو المنفى في مقابل رحلة الطبيب إلى الأرياف التي افتتح بها الرواية عارضا من خلال (الفلاش باك) أسبابها وخلفيتها الاجتماعية والسياسية، وهناك أيضا الطبيب رحلة النكوص التي يقوم بها في الصحراء واكتشاف مدى الهوان الذي يرزخ تحته البشر لنقرأ "يشير العساكر الموجودين في العربة الكبيرة يهبطون وهم يحملون أكفانا بيضاء ناصعة مثل الرمل الذي نقف عليه كانوا يعرفون منذ البداية أنها رحلة للموتى". طبيب أرياف ص٢٠١

وعلى الرغم من انتماء رواية الحكيم للرومانسية وما تتميز به من إسراف في بساطة حكايتها وتوجيه الاهتمام إلى اصطناع المفاجآت ووصف الانفعالات وصراع الخير والشر، وانتماء رواية المنسي إلى الواقعية بعد تحول قص القرية في السبعينات إلى أشكال هامشية ومزايدات غير منطقية من أجل استكشاف تلك الطبيعة الأسطورية الشعبية وذلك الجانب القسري الخفي في المجتمع الريفي من خلال البساطة والفطرة تلك البساطة التي يستغلها الحاكم في المدينة – فإن السخرية تعد نقاط جذب تغري الواقعيين بالتوجه للريف؛ مما جعل الروايات الواقعية عن الريف مثل رواية (المنسي قنديل) ودون مبالغة هي الأعمال الأكثر نضجا من الناحية الفنية وهي الأكثر عددا من الناحية الكمية.

أحكم المنسي نسج قصصه القصيرة مكونا بها رواية أكثر تماسكا من رواية الحكيم التي اقتصرت على حكايات منفصلة حول الفساد جعل كل منها يومية من يومياته حاول أن يربطها بما بعدها وما قبلها من حكايات وفق في بعضها وجانبه التوفيق في البعض الآخر الرابط الوحيد بينها أنها قضايا يحقق فيها النائب – ورغم ذلك تظل رواية (نائب في الأرياف) – رواية "عظيمة يغلب عليها السرد القصصي وقوة الملاحظة وخفة الروح؛ فتوفيق الحكيم متفائل في سخريته لأن مصريته عميقة ومن هنا تعد رواية توفيق الحكيم وثيقة أنثروبولوجية؛ مما يمكنه أن يجد في أقسى

صور الشقاء أسبابا للضحك فإن يومياته هذه يمكن أن نعتبرها من الأدب الفكاهي الممتاز إنها تذكرنا بأعمال (تشيكوف) و (جوجول) وتحقيقاته الجنائية هي مزيج من النكتة فروح الفكاهة عنده طبع أصيل والتعليق اللاذع أسرع من رد الطرف ورغم أنه كتاب مؤلم وهو كتاب مهم جدا؛ لأن به الكثير عن مصر يبدأ عادة بالضحك من مصائبه لكنه في النهاية يجد وسيلته التي يسترد بها الحياة".[١]

١ جابستون ويت – رأي النقاد الأجانب في نسخ الرواية المترجمة

مخطط يوضح أهم أوجه التشابه بين روايتي (يوميات نائب في الأرياف) لتوفيق الحكيم ورواية (طبيب أرياف) للمنسي قنديل

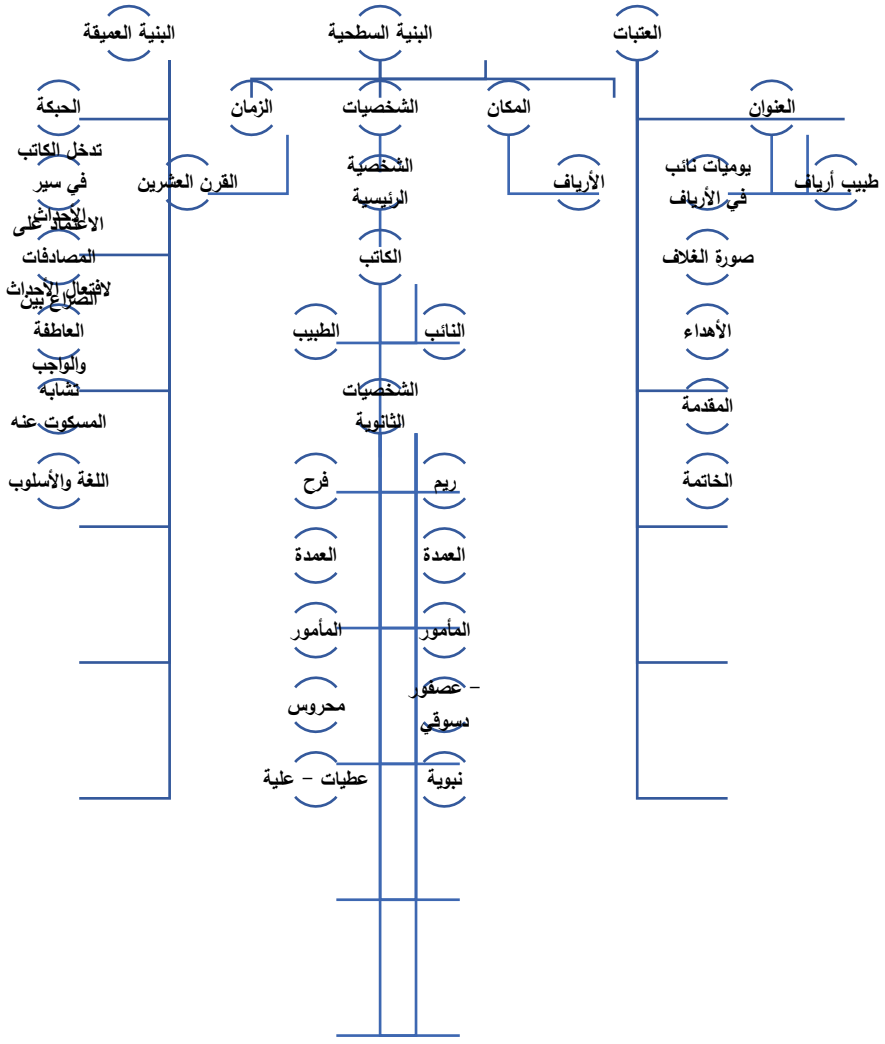

خاتمة البحث:

أن كلتا الروايتين تراجيديا ساخرة تستشرف نتائج الفساد مبكرا، خاصة وأن "المدينة هي صانعة – الروايتين – والمستهلك الأساسي لهما؛ بما لها من شبكة من العلاقات تسمح بصنع نسيج فني متعدد الرؤى، ولكن هذا لا يمنع أن تتنفس بعض الروايات المبكرة عن الريف وخاصة في العصر الرومانسي الذي رفع شعار (العيش على وفاق مع الطبيعة) وليس مصادفة أن تكون الروايات العربية الأولى رومانسية وتجري أحداثها في الريف أيضا"[١]؛ ومن ثم جاءت روايات تلك الفترة ذات نزعة أخلاقية ضعيفة من الناحية الفنية بينما كشفت رواية المنسي) – التي تلتها بأكثر من نصف قرن – عن رؤية جديدة للعلاقة المستمرة بين الريف والمدينة ومحاولة لإقامة التوازن في الحركة المتبادلة بينهما

وعلى الرغم من أن الريف مكان الروايتين الرئيسي، فإن المدينة هي البطل الأساسي لكلتيهما، فكلا الكاتبين وجها جل نقدهما للمأمور والقاضي والمساعد وموظف مديرية الصحة وكلهم من المدينة وليسوا من الأرياف، ومع ذلك يمكن أن نؤكد انحياز الكاتبين كليهما إلى الفلاح وما يمثله من عناء الطبقة الكادحة، ولكن جاء المنتج النهائي (الرواية) لكل منهما مختلفا.

الروايتان تعجان بالدلالات التي تفضح الفساد بكل أنواعه، وإن جاء التناول مختلفا نسبيا، فإذا كانت رواية الحكيم تثير الأفكار إثارة خطابية مباشرة غالبا والشخصيات فيها ضحايا الفساد الإداري وقلة الخدمات والإهمال وغيرها مما يمكن أن نعتبره (معاناة مادية للريف المصري والفلاحين)، وهم رموز الطبقات الاجتماعية جاءت رواية المنسي اجتماعية تحمل الطابع العاطفي المشبوب الثائر ترى

١ محمد حسن عبد الله – الريف في الرواية العربية – عالم المعرفة – المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت – العدد ١٣٤ – ١٩٩٨

الشخصيات الريفية ضحية فساد اجتماعي أكثر منه إداري؛ ولذا جاءت معظم حكايات الحكيم عن المحكمة ونماذج للقضايا التي تعرض من بعض الأشخاص باعتبارها نافذة على الريف الذي يتحدث عنه من الخارج فلم يستطع الحكيم أن يتغلغل داخل هذا الريف فقط اكتفى أن ينظر إليه من عل من فوق كرسي النيابة ولذا ركز على الأرقام والبيانات والتواريخ وفي المقابل فقد ركز المنسي قنديل في روايته على (المعاناة الوجدانية للريف المصري والفلاحين) – إن جاز لنا التعبير _ فإذا كان الحكيم في روايته يدين السلطة وممثليها بداية من الغفير وحتى القاضي وإن كان معظم نقده موجه للمدينة وأهلها وليس القرية بل أنه جعل الريف إطار خارجي فقط لروايته فمعظم نقده موجه للمأمور والمساعد والقضاة وكلهم ليسوا من الأرياف، بينما غاص المنسي في روايته في الريف المصري وتغلغل في مشكلاته بل ويتعاطف معه أحيانا رغم إدانته لعاداته وتقاليده التي يعتبرها الجاني الرئيسي وسر معاناة الريف ومن فيه فكلاهما يتفقان في نقد المجتمع ولكن لكل منهما فلسفته ورؤيته الخاصة،؛ حيث يكمن الصراع الدرامي في كلتا الروايتين بين (النائب) أو (الطبيب) من جهة والواقع من جهة أخرى؛ ومن هنا قدمت رواية (طبيب أرياف) معالجة جديدة تضاف لمعالجة توفيق الحكيم في (يوميات نائب الأرياف).

وفي سبيل تحقيق تلك الرؤية فقد اتحد الكاتبان في سردهما السير ذاتيًا على تقنية فنية مهمة وفاعلة لا يستغنى عنها في كتابة السيرة الذاتية وهي تقنية (الاسترجاع السردي)؛ فقد شكل كلا الكاتبين محتواهما السردي الأولي من خلال الأحداث التي عايشها كليهما (بحلوها ومرها)؛ معتمدين على أحداث حقيقية حدثت لهما في حياتهما الشخصية ضمن كتابة إبداعية تدور حول محيطة الاجتماعي وتاريخ شخصية بتفاعله مع شخصيات أخرى داخل المجتمع الذي يعيش فيه وقدم كل منهما سردهما بشكل واقعي منطلقين من البنية السطحية الخارجية نحو البنية الداخلية العميقة.

وقد كشفت الدراسة عن رؤية نقدية للأرياف يتبناها الكاتبان، كما بنيت السيرة في كلتا الروايتين بناء محكما اعتمادا على عينات مختلفة، وإن امتاز المنسي قنديل على قدرته على التوظيف بفنية واقتدار ساعدته عليهما خبرته الطويلة والنضج الذي وصل إليه بعد رحلة روائية طويلة.

كما توصلت إلى نتيجة مؤداها أن الكاتبين استخدما إطار السرة الذاتية لخلق شخصية روائية ومن ثم تحميلها بأفكار اجتماعية وسياسية ضمن سياقات سردية أظهرت تطورها، ومن هنا عاش بطلي الروايتين حلما فرديا رومانسيا دون أن ينفصما عن الجماعة التي تحكمت في مصيرهما، فرغم أن الحكيم حاول ألا يقف عند حياته الخاصة وترجمته الذاتية ولكنه أراد أن يجعل من حياته الخاصة رمزا لحياة شعب بأسره وبطبقاته المختلفة – من الخارج – بينما نجد جيل قنديل أكثر تفهما للواقع وإحساسا وقربا منه؛ "فالروايات الواقعية عن الريف ودون مبالغة، وهي الأعمال الأكثر نضجا من الناحية الفنية،... ويمكن تعليل هذا النضج الفني بأن الحياة في الريف بطبيعتها تحمل معنى التناقض الذي يجسد الصراع رغم أن كل شيء في الريف يقر مبدأ العدالة والجماعية، فالطبيعة السخية البسيطة ونظام العمل في الأرض وأواصر القرابة الوثيقة بين أبناء القرية الواحدة تحبذ الكفاية والمساواة".[١]

ومما سبق يمكن القول إن الروايتين تلتزمان في خطوطهما العريضة؛ مما يؤكد صدى – بل أصداء إن جاز لنا التعبير – رواية (يوميات نائب في الأرياف) لتوفيق الحكيم في رواية (طبيب أرياف) للمنسي قنديل، بداية من (الرؤية) نفسها للريف المصري، الرؤية التي تجلت في العتبات المتشابهة، والتي شكلت مراحل سير الشخصية الرئيسية في كلتا الروايتين هذا، بالإضافة إلى معظم تفاصيل

١ محمد حسن عبد الله – الريف في الرواية العربية – عالم المعرفة – ١٩٩٨

وعناصر البنية السطحية، وصولا إلى البنية العميقة، وإن كان المؤلفان قد اقتربا أحيانا واختلفا أحيانا أخرى كثيرة؛ لقد استطاع المؤلفان أن يبنيا عالما مختلفا ينتمي إلى الواقع وينفصل عنه في الوقت نفسه واستطاعا أن يرصدا تحول المجتمع الإنساني وإشكالية الإنسان في التحول معه كما أن كل منهما فضح دور السياسة في تأصيل غربة.[١]

ومن ثم يوجد تقارب شديد في المشروع الذي تطرحه الروايتان، وهذا ما يمكن أن نلمسه إذا نظرنا إلى مشروعهما في ضوء الكتابات التي تنتمي لهذا النوع من الكتابة (رواية الترجمة الذاتية)، والتي يتم فيها نقد المجتمع وما به من فساد؛ فكلاهما يؤمن بضرورة تغيير الأرياف، ولكن أحدهما – الحكيم – ركز من خلال مشروع جمعي إصلاحي على تغيير الإدارة والسلطة، بينما ركز الآخر – قنديل – من خلال مشروع فردي إنساني على تغيير الأفكار والعادات والتقاليد.

ويمكن إبراز بعض أوجه التشابه بين الروايتين في:

- الفكرة الرئيسة، وهي إلقاء الضوء على الريف ومعاناته، وإن كنا نلمح بعض الاختلافات في الأفكار والقيم الفرعية طبقا للسيرة الذاتية لكليهما؛ فبينما كتب الحكيم سيرة ذاتية مطعمة بالسخرية من أوضاع الريف والفلاحين، ركَّز قنديل على تيمة الرحلة والريف بين الماضي والحاضر.
- وصف القرية (مكان الأحداث) فهي قميئة مهزولة مستنزفة مجهولة الدور مع أنها مصدر البذل، والمكان هنا (الريف المصري) حاضرًا في الروايتين بداية من العنوان بصيغة الجمع (أرياف) بل أن الروايتين قائمتان على المكان.

١ إدوارد سعيد – المثقف والسلطة – ترجمة محمد عناني – رؤية للنشر والتوزيع – القاهرة – مصر – ط١ – ٢٠٠٦

- بنية الشخصية الرئيسة فالشخصية الروائية في كلتا الروايتين قد تم تحميلها بأفكار اجتماعية وسياسة؛ لخلق سياقات سردية تنتمي إلى تيار السيرة الذاتية.
- الشخصية البطل، حيث أمكن رصد تشابه كبير بين شخصيات الروايتين شكلا ومضمونا، فكلاهما بطل إشكالي في زمن وغد ويحاول كل منهما تعرية الفساد كنوع من الموازاة مع عالم الوطن الكبير بأحلام شخصياته وأزماتهم وإحباطاتهم، ولعل الشكل التوضيحي السابق لمقابلة شخصيات الروايتين يؤكد تأثر رواية (طبيب أرياف) برواية (يوميات نائب في الأرياف).
- استخدام تقنية (تسريع الأحداث) في كلتا الروايتين لتشويق القارئ؛ فبينما نجد الحكيم يستخدم هذه التيمة خاصة في التحقيقات لتشي بالتسرع في الأحكام أحيانا الذي يؤدي إلى الظلم؛ استخدمها قنديل هربا من العادات والتقاليد لتشي بظلم المجتمع أيضا.
- الاعتماد على المصادفات لافتعال الأحداث داخل الروايتين وسبل معالجة ذلك.
- الصراع بين العاطفة والواجب، ذلك الصراع الذي عاشه البطلين في الروايتين، كما يتضح في حيرة القاضي بين عمله في التحقيق والنيابة وبين انجذابه وإعجابه ب (ريم) إحدى المشتبه فيهم في القضية وهو نفسه موقف الطبيب (علي) من (فرح) الممرضة وحيرته بين حبه لها وبين تأنيب ضميره؛ لأنها متزوجة.
- النقد اللاذع للريف المصري بجهله وعاداته وتقاليده، والذي ركز عليه كلا الكاتبين وإن استخدم الحكيم ألفاظا لاذعة وتشبيهات شديدة القسوة. والنظرة التشاؤمية بسبب انتشار الفساد؛ حيث نجد تشابها بينهما في هذا السياق؛ فكلاهما اعتمد أسلوبا لتصوير الواقع دون تجميل، ولكننا نلمس اختلافا بين حيادية (النائب) واشتباك (الطبيب) مع الواقع.

- التطابق في وجهتي نظر الكاتبين حول الانتخابات ودور الشرطة فيها، ومع ذلك فقد عبر عن ذلك قنديل بشئ من الإسهاب والتفصيل حتى أنه أفرد لها فصلا كاملا، خاصة بعد مروره بعدة تجارب انتخابية أراد أن يختزلها ويعبر عنها جميعا في مقابل الحكيم وتاريخ روايته الذي يؤكد حداثة عهده بتجربة الانتخابات.
- استخدام بعض الألفاظ والتعبيرات العامية في الروايتين للتعبير عن البيئة الريفية، ويظل الحكيم متمسكا ببعض التعبيرات العامية حتى نهاية الرواية ،وكذلك (المنسي) الذي استخدم كلمات تحاكي الواقع في الريف المصري مثل ألفاظ (الرتينة) وإن جاءت العامية أقل عنده؛ فقد حاول تطويع الفصحى للتعبير عن المواقف المختلفة في الرواية.
- ولكن إلى أي مدى اختلفت صورة (طبيب الأرياف) عند المنسي قنديل عن سابقتها عند يحيى حقي في (قنديل أم هاشم) ولا حقتها عند أحمد عاطف في (البالطو).. ربما يكون ذلك مجالا بحثيا جديدا للباحثة أو غيرها في المستقبل.

مصادر البحث ومراجعه:

أولًا – المصادر:

- توفيق الحكيم – (يوميات نائب في الأرياف) – مكتبة مصر – ١٩٨٨
- المنسي قنديل – (طبيب أرياف) – دار الشروق – ٢٠٢٠

ثانيا – المراجع:

- إبراهيم عوض – الترجمة وأثرها في تطور القصص العربي – ٣ – ٣ – ٢٠٠٤
- ابن منظور – (ب – ت) لسان العرب – تحقيق عبد الله علي – محمد حسب الله – هاشم الشاذلي – القاهرة – دار المعارف – المجلد الثاني
- أحمد مجدي – المنهج المقارن وطرق استخدامه (الأهداف – الخصائص – الخطوات) مناهج البحث – المدونة – مكتبتك – ٢٠٢٢
- ادوارد سعيد – المثقف والسلطة – ترجمة محمد عناني – دار رؤية للنشر والتوزيع – ٢٠١٣
- أسماء حسن الغوري – عتبات النص ودلالتها في الرواية العربية المعاصرة – ساق البامبو نموذجا مجلة ديلي – العدد السادس ولثمانون ٢٠٢٠
- أميرة الكولي – البنية الحكائية في الأدب العربي – دراسة في ضوء المنهج البنيوي – دار التنوير الجزائر – ٢٠٠٢
- حامد عبد اللطيف – قضايا الفن الروائي في أدب يوسف السباعي – مخطوط كلية الآداب – جامعة طنطا – ١٩٨٧
- جابر عصفور – النظرية الأدبية المعاصرة – القاهرة – دار قباء للطباعة والنشر – ٢٠١٣
- رهف السيد – السيرة الذاتية في الأدب العربي – سبتمبر ٢٠٢٠
- سماح سليم – الرواية والخيال الريفي في مصر – من ١٨٨٠ : ١٩٨٥ – ترجمة عبد الرحمن الشرقاوي – المركز القومي للترجمة – ط ١ – ٢٠١٨

- سمر الديوب – النص العابر – دراسات في الأدب القديم – مطبعة اتحاد الكتاب – دمشق – ٢٠١٤
- شوكت المصري – تجليات السرد في الشعر العربي الحديث –سلسلة دراسات أدبية – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ٢٠١٥
- الحسين قصي– تفكيك النص و تفكيك المصطلح النقدي – مجلة الفكر العربي المعاصر – مركز الإنماء الحضاري – بيروت – العدد ٢١ إبريل – ٢٠٠٠ إبريل – مايو – ٢٠٢١
- عائشة شهناز فاطمة – التجربة الشخصية والترجمة الذاتية في الرواية العربية – مجلة نقيب الهند –
- عبد الحميد بواريود – الكشف عن المعنى في النص السردي – السرديات السيميائية – الجزائر – دار عكنون – ٢٠٠٠
- عبد المحسن طه بدر – الرواية العربية في مصر – دار المعارف – الطبعة الثالثة – ١٩٧٩
- عبد الرحمن محمد – نشأة الرواية العربية وتطورها – مجلة سطور – مايو ٢٠٢١
- عبد الله إبراهيم – السيرة الروائية – إشكالية النوع والتهجين السردي – مجلة نزوي – سلطنة عمان – وزارة الإعلام – إبريل – ١٩٩٨
- عبد الفتاح عثمان –بناء الرواية – دراسة في الرواية المصرية – مكتبة شباب ١٩٨٢ – ٢٠٠٠
- عثمان بدوي – وظيفة اللغة في الخطاب الواقعي عند نجيب محفوظ – دراسة تطبيقية – الجزائر – دار عكنون – ٢٠٠٠
- عز الدين إسماعيل – الأدب وفنونه – دار الفكر العربي – القاهرة – ٢٠١٣
- عزت عمر – (يوميات نائب في الأرياف – تراجيديا ساخرة تستشرف نتائج الفساد مبكرا) مجلة البيان – ديسمبر ٢٠١٦

- عمار علي حسن – الرواية والريف العربي الجديد – أكاديمية (بالعقل نبدأ) – الصفحة الرئيسية – الجزء الأول
- قحطان بير قدار – رواية السيرة الذاتية بين الواقع والمتخيل – الواقع الإبداعي المتخيل – ٢٣ – ٤ – ٢٠٠٩
- محمد عبد المطلب – بلاغة السرد – القاهرة – الهيئة العامة لقصور الثقافة – كتابات نقدية – العدد ١٩٦ – ٢٠١٣
- محمد راضي – دلالة المفردات والصور في رواية نائب في الأرياف – دراسة أسلوبية سيموطيقية – جامعة بنغازي – المجلة الليبية العالمية – مارس ٢٠١٦
- محمد إبراهيم جاد الله – رواية (طبيب أرياف) قصة حب متقدة يتعرى خلالها الريف المصري – ٢٤ – يناير – ٢٠٢١
- محمد حسن عبد الله – الريف في الرواية العربية – عالم المعرفة – ١٩٩٨
- فايزة صلاح قاسم عثامنة – العتبات النصية في السير الذاتي وتقنياته – حكاية وشم – لعبد القادر الرباعي نموذجا – دراسة تطبيقية – ٢٠٢٣
- موسوعة أخضر للكتب – (رواية طبيب أرياف) – ٢٠٢٢
- يوسف نجم – القصة في الأدب العربي الحديث – الطبعة الثالثة – دار الثقافة – بيروت – ١٩٦٦

الملاحق

غلاف الروايتين